نظرات
في التراث الإسلامي

تأليف

د. فاروق عبد المجيد السامرائي

جامعة اليرموك/كلية الشريعة (إربد - الأردن)

دار الأمل للنشر
الطبعة الأولى ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرات في التراث الإسلامي

تأليف

د. فاروق عبد المجيد السامرائي

جامعة اليرموك ، كلية الشريعة (إربد- الأردن)

موضوعات الكتاب

المقدمة	٣
مفهوم التراث والأصالة	٧
أهميّة التراث والأصالة في حياة الأمّة	١٢
معوّقات في طريق التأصيل	١٩
لماضينا أم لحاضرنا	٢٥
حفظ الدين وحتميّة التجديد	٣١
نظرة في السيرة النبويّة	٣٦
نظرة في جيل الصحابة	٤٠
نظرة في خلاف الفقهاء	٤٦
النزعة الإنسانيّة	٥٣
بين الاتباع والابتداع	٥٦
الفهم الدقيق لنصوص التراث	٦٣
مظاهر التطرف	٦٨
ضوابط التعامل مع التراث	٧٣
نظرة في وصايا العلماء	٧٥
المصادر والمراجع	٨٠

المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله. أمّا بعد[1]:

فلقد أحدث التفاعل بين المنهج الرباني، والواقع البشري، تراكماً معرفيّاً اتّسع نطاقه مع تتابع عصور الإسلام، وأصبح من الصعب الإحاطة الشاملة بعناصر الفكر الإسلامي، وشموليّة التعامل معها، لذا باتت الحاجة ماسّة إلى عمق التّصوّر، وموضوعيّة النّظرة لمعطيات التراث الإسلامي، لأجل الإسهام في تعزيز الفقه الحضاري المتوازن، الذي يتّصف بالمرونة الفكريّة، وسعة الأفق في تصوّر الأحداث، وفهم مدلولات النّصوص، لنجمع بين فقه مراد الدين، وفقه واقع النّاس، وبين ثوابت المنهج ومتغيّرات الأحداث، في ضوء العقيدة الإسلاميّة، الحامية من التشتت والانحراف.

---

(١) خطبة الحاجة، رواها الإمام مسلم، الصحيح، كتاب الجمعة، حديث رقم (٨٦٨)، والإمام الترمذي، السنن، كتاب النّكاح، حديث (١١٠٥)، والإمام أحمد، المسند، كتاب مسند باقي المكثرين من الصحابة، حديث (٤١٠٤)، والإمام الدارمي، السنن، كتاب النّكاح، حديث (٢٢٠٢).

إنّ مقياس حجم التأصيل في واقعنا الإسلامي، ليس في اتساع وشموليّة عناصر تراثنا فحسب، وإنّما في إمكانيّة جعل قيم الأصالة فاعلة في حياتنا، أن نرثها بأمانة وصدق، لنرتقي بها من حسن التنظير إلى كمال الأداء، ومن مثاليّة الفكر إلى واقعيّة التطبيق. إذ ليست العبرة بالضخمة المعرفيّة، وإنّما القدرة على تفريغ عناصر المعرفة الإسلاميّة في واقع الأمّة. لنعيش روح التراث، وليس شكله وقالبه.

ومع أنّ المكتبة الإسلاميّة كانت وما زالت تمثّل وعاء التراث الإسلامي، لكن مشكلة التعامل معها اتسع نطاقها بسبب ضخامتها وتزايد محتوياتها وتنوع عناصرها، الأمر الذي نتج عنه حالة من الرعب والفزع لدى الجيل المعاصر خصوصاً عندما توجّه أفراده للتعامل معها. إضافة إلى انّ معظم مصادر التراث كُتب بلغة قويّة جزلة، وبتراكيب صعبة يثقل فهمها على كثير من النّاس، وبخاصّة عند غير أصحاب التخصص.

إذن لابدّ من إعادة النظر في أسلوب الاكتساب المعرفي، بحيث تحدد فيه الأولويات، وما يلزم للاكتساب المرحلي من مستوى لآخر، كي نتمكن من رفد حركة التجديد بما يتناسب وحجم المتغيّرات التي أحدثتها القفزة الحضارية الهائلة في عالم اليوم، بعيداً عن المغالاة، وعن المصادمات الفكريّة التي ألهت عن تحقيق الهدف، وحرفت روّادها عن الطريق القويم.

لقد أحدث واقع التعامل مع التراث الإسلامي هوّة واسعة بين معطيات الأصالة، ومتطلبات الواقع، حتّى بات العالم الإسلامي يعيش حالةً من الفوضى الفكريّة والمعرفيّة بسبب فقدان القدرة على ضبط وجهة التأصيل، وتحديد متطلبات الأمّة، كي تستقيم حياة المجتمع الإسلامي وفق منهج الله، وفي ظلال شريعته.

وعلى الرغم من اعتزازنا بتراثنا الإسلامي، لكن ذلك لا يعني لزوم التعامل مع جميع جوانبه أو عناصره في ضوء مفهومه الشامل، من غير تمييز وتمحيص وتقويم، خصوصاً إذا استثنينا نصوص الكتاب والسنّة. فما الذي يمنع من تجاوز عناصر علّة من تراكمات التراث، إذا تفرّقت بوجودها الكلمة، وتشتت بسببها الجهود، وكثر حولها الجدل والنّقاش؟

يلزمنا البدء بما اتّفق عليه، لتكوين قاعدة مشتركة في الأخذ عن القديم. ولا ضير في أن نوجد أسلوباً ومنهجاً يتسم بالعدالة والموضوعيّة في التعامل مع اجتهادات العلماء مهما تنوعت، على أن نُميّز بين خلاف الأئمّة، وبين اختلاف الأمّة، فالأول يُمثّل الاتّساع في عناصر التراث وزيادة مساحة الانتقاء والاختيار، والثاني قد يقودنا إلى التباين الفكري، وتشتت وحدة الصف.

ومن هنا رغبت في هذا الكتاب أن أسهم في تحقيق سلامة النظرة للتراث الإسلامي، ومصداقيّة التعامل مع عناصره، بما يُحقّق الاستفادة منه على الوجه الصحيح. مع محاولة تجنّب

النظرة المتطرفة التي أحدثت خللاً في التوازن الفكري والمنهجي، لتحقيق مبدأ التوسط في تناول عناصر التراث، كي نحمي أنفسنا من هاوية التطرف في المنهج والأداء. يقول الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت

بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

ذلك أنّ مبدأ التوسط والاعتدال في الفكر الاسلامي، انبعثت جذوره من سمات وخصائص الأمّة الإسلامية التي حدّد معالمها القرآن الكريم، قال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمّة وسطا[1]) لأجل أن تكون لها أحقيّة الشهادة على غيرها (لتكونوا شهداء على الناس) [البقرة: ١٤٣].

وأخيراً أسأل المولى جلّت قدرته أن يوفقنا للرأي السديد، وأن يُثبّت خُطانا على طريق الحقّ، وأن يرزقنا صدق القول والعمل، فهو حسبنا والهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله وسلم على سيّدنا محمّد.

د. فاروق السامرائي

جامعة اليرموك، إربد - الأردن

(١) أي جعلناكم دون الأنبياء، وفوق الأمم. (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢/١٥٣)

مفهوم التراث والأصالة

أولاً: التراث

التراث في المفهوم اللغوي: هو مايخلّفه الرجل لورثته، وبرادفه «الورْثُ والإرْثُ والوِراثُ والإراثُ. ويشمل المال والحسب[1] ووردت كلمة التراث ومرادفاتها في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: **(وتأكلون التُّراثَ أكلاً لمّاً)** [الفجر:١٩]، وقُصِد بها الميراث. ووردت بمعنى الدين والعقيدة والهدى والعلم والنبوة[2]، كما في قوله تعالى في دعاء زكريا (عليه السلام): **(يَرِثُني ويَرِثُ من آل يعقوب)** [مريم: ٦]، وقوله تعالى: **(وورِثَ سليمانُ داودَ)** [النمل: ١٦] وفي قوله: **(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا...)** [فاطر: ٣٢]

ومن معاني التراث في حديث رسول الله ﷺ أنهَ الميراث، قال ﷺ: **«إنّ أغبط النّاس عندي مؤمن خفيف الحاذ، ذو حظّ من صلاةٍ، غامض في النّاس لايُؤبه له، كان رزقه كفافاً وصبر**

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة ورَثَ ٦/٤٨٠٨ - ٤٨٠٩

(٢) انظر: الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، ٢/٤٤٣، ٦٦٧، ٦٦٨؛ وسيّد قطب: في ظلال القرآن ٥/٢٦٣٤

عليه، عُجّلت منيّته وقلّ تُراثه وقلّت بواكيه»[1].

أمّا معناه في الاصطلاح: فقد تباينت الآراء في تحديد مفهوم التراث، والذي يعنينا من ذلك تحديد الاطار الشامل لهذا المفهوم لأجل اتّساع دائرة التعامل مع عناصره الشاملة لجميع معطيات الأمّة الإسلاميّة على مرّ العصور.

فالتراث هو: ماورثناه عن السابقين من علوم وحضارة وفكر واجتهاد، في ظلال العطاء الشامل والمتكامل للمجتمع المسلم.

وفيما يتعلّق بالوحي، وهل يدخل في إطار هذا المفهوم، فلعلّ رواية أبي هريرة (رضي الله عنه) فيها مايزيل اللبس، فقد ورد عنه أنّه «مرّ بسوق المدينة فوقف عليها فقال :يا أهل السوق ما أعجزكم.قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يُقسم وأنتم هاهنا ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه. قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد. فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نرَ فيه شيئاً يُقسم! فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى رأينا قوماً يصلّون، وقوماً يقرأون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام.

---

(١) الترمذي، السنن، كتاب الزهد، حديث رقم (٢٣٤٧) ؛ ابن ماجة، السنن، كتاب الزهد، رقم الحديث (٤١١٧) واللفظ له ؛وأحمد، المسند، باقي مسند الأنصار، حديث رقم (٢١٦٦٣).

فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمّد ﷺ»[1]

فالعلماء ورثة الأنبياء، أخذوا عنهم العلم، وهو مادة الوراثة بين الوارث والموروث، قال ﷺ: **«العُلماء هم ورثة الأنبياء، ورّثوا العلم، من أخذه أخذ بحظٍّ وافر»**[2] وورد بلفظ: **«إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يُورّثوا ديناراً ولادرهماً إنّما ورّثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظّ وافر»**[3]

وضابط المفهوم الشامل للتراث، إزاء خطر وعواقب الخلط في التعامل بين الوحي وغيره، هو التفريق في النظرة وطريقة التعامل، بين الوحي الإلهي والمنجزات البشرية الحضارية والثقافية، على أساس أنّ «الوحي الإلهي لا يقبل الانتقاء والاختيار منه وترك الباقي أو محاولة تطويعه للواقع، أو التفكير بتوظيفه لتحقيق مصالح خاصة أو عامة، بل هو إطار يحكم الحياة، ثمّ يدعها تتطور داخله، فإذا انفلتت خارجه فقد وقع انحراف لابد من تقويمه، وقد حذر القرآن من محاولة الانتقاء، قال تعالى: **(أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**

---

(١) الهيثمي: مجمع الزوائد، ١/١٢٣، ١٢٤

(٢) البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل (الحديث ذكره في ترجمة الباب)؛ والترمذي، كتاب العلم، حديث رقم (٢٦٨٢)؛ وأبو داود، كتاب العلم، حديث رقم (٣٦٤١)؛ وابن ماجة، كتاب المقدمة، حديث رقم (٢٢٣).

(٣) الترمذي، السنن، كتاب العلم، حديث رقم (٢٦٨٢)؛ وأبو داود، السنن، كتاب العلم، حديث رقم (٣٦٤١)

فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) [البقرة: ٨٥]. وأما المنجزات البشرية الحضارية والثقافية فإنها قابلة للانتخاب والتوظيف وفق الرؤية المعاصرة وحسب الحاجة والمصلحة»[١].

أمّا وجهة الانتقاء والأخذ والاختيار من معطيات الوحي الإلهي في إطار اسلوب التعامل ضمن فقه الأولويّات، وترتيب المصالح، ليس بقصد الاجتزاء الذي يعكسه الخلل في الاعتقاد، فذلك لا ضرر فيه، خصوصاً إذا قُصد منه التدرّج والتوازن والمرحليّة في التعامل مع مفردات وموضوعات الوحي الإلهي، لتحقيق وتيسير سيادة قيم الوحي واقع المكلفين.

ثانياً: الأصالة

الأصل في اللغة: أسفل كلّ شيء، وجمعه أصول. ويُقال: أصُلَ الشيء أي صار ذا أصل، وكذلك يُقال: رجل أصيل أي: ثابت الرأي عاقل، وقد أصل أصالة، ورجل أصيل الرأي أي رأيه أصل أصالة، وكذلك مجد أصيل: أي ذو أصالة.[٢]

وفي الاصطلاح : يرى بعض المفكرين أنّ الأصالة تعني: «اختيار مافي التراث من نماذج ومن أصول اختياراً قائماً على الفهم والتمييز، وعلى اتصالها بعراقة الأمّة في ماضيها المشرق،

---

(١) أكرم العمري : التراث والمعاصرة ص ٢٧-٢٨

(٢) ابن منظور: لسان العرب ١١/١٦، ١٧

وعلى استمرارها في التعبير عن شخصيتها في مستقبلها » ولا تعني الأصالة «الانتماء إلى الماضي أيّاً كان، والوقوف عنده بلا حركة دافعة إلى الأمام»[1] وكذلك لاتعني بالأصيل كل ماهو قديم، حسب الفهم التقليدي، وإنّما هو إمتداد الشيء إلى ماضيه، واتصاله به. فالماضي يُمثّل جذور الحاضر، وصورة الحاضر معيار لإرتباطه بماضيه.

إذن كيف نتعامل مع الماضي لتأصيل الحاضر في ضوء التراكم المعرفي، وفقدان المعايير الواضحة التي يتحدد بوجودها أسلوب الانتقاء. ؟ ثمّ هل في واقعنا المعاصر من المقومات ماترقى به إلى تقبل معطيات أصالتنا، والتعايش مع قيمها ؟

إنّه لمن الخطأ أن ننظر ألى حجم التأصيل من خلال كثرة التعامل مع نصوص التراث، فلا تعني كثرتها أصالة البحث، لأنّ عوامل كثيرة تحكم منهجيّته، وتحدّد ملامح أصالته.

(١) استراتيجيّة تطوير التربية العربية (تأليف لجنة) ص٨٢

أهميّة التراث والأصالة في حياة الأمّة

منذ زمن قديم قامت على وجه الأرض أمم وحضارات عدة، وكان لها تاريخها ومجدها، وحافظت على ذلك فترة من الزمن، ثمّ مالبثت أن تلاشت، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك. وهذا لا يعني أنّ نسلها البشري انقطع واندثر، لأنّ أجيالها مازالت تتوالد وتتكاثر، ولكنّ شخصيّتها القوميّة، ومقوّمات حضارتها بادت واندثرت، وبالتالي ذابت خصائصها وسماتها. فمثلاً في زمن غابر ازدهرت الحضارة الفرعونيّة، والبابليّة، وبلغت كلّ منهما أوجاً حضارياً وعمرانياً قلّما نجد له نظير في تاريخ الأمم القديمة، ومع ذلك لم نجد لهذه الكيانات وجوداً اليوم.

ويُعلّل الأستاذ أبو الأعلى المودودي سبب غياب واختفاء مثل تلك الحضارات، بقوله: «لأنّ أجيالها التي توالت كانت قد فقدت الكفاءة التي تستطيع بها نقل ماتوارثته عن أسلافها إلى أخلافها، وقد ثبت من ذلك أنّ أجيال شعب من الشعوب إذا فقدت شخصيّتها القوميّة، وانصهرت في بوتقة شخصيّة أخرى فهذا يعني أنّها قد اندثرت وفنيت»[1]

(١) المودودي: دور الطلبة في بناء مستقبل العالم ص ٣٠٢

ويُلقي الأستاذ المودودي الضوء على بعض الشواهد التاريخيّة التي تُعزّز مثل هذا التصوّر، حيث شهد التأريخ العالمي غياب أثنتي عشرة قبيلة من بني اسرائيل عن الوجود، ولم يُعثر لها عن أثر حتّى هذه الساعة. وهذا الأمر قد لايُفسّر بأنّها قُتلت عن آخرها، واقتلعت جذورها من الأرض إلى الأبد، فقد يكون المراد من ذلك أنّها قد مات فيها الوعي الإسرائيلي، ولم ينتقل هذا الوعي إلى أجيالها المتعاقبة.[1]

ومن أجل ذلك فإنّ من أعظم المخاطر التي تُهدّد مستقبل الأمّة، فقدان أبنائها الأصالة الإسلاميّة التي حافظت على كيانها وشخصيّتها قروناً طويلة. لذا فإنّ أيّة سياسة تربويّة لا تستهدف بعث روح الأصالة في واقعنا التربوي فهي خيانة وغدر، وهدم لكيان الأمّة، وانحلال لشخصيتها.

لقد عزّز الإسلام فينا روح الإبداع، واستقلاليّة الذات، ووحدة الهدف، وكفاية المنهج. قال تعالى: **(أولم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم. إنّ في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)** [العنكبوت: ٥١] فعن جابر بن عبد الله أنّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغيّر، فقال أبو بكر (رضي الله عنه): ثكلتك الثواكل، ماترى بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى

---

(١) المرجع السابق ص ٣

وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله، رضينا بالله ربّاً وبالإسلام دينا، وبمحمّد نبيّاً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمّد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيّاً وأدرك نبوتي لاتّبعني».[1]

وفي رواية أخرى أنّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عندها غضب النبي ﷺ وقال له: «أمتهوكون[2] فيها يابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، لاتسألوهم عن شيء فيُخبروكم بحقّ فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أنّ موسى ﷺ كان حيّاً ماوسعه إلاّ أن يتبعني».[3]

وعن إبراهيم التيمي قال: «بلغ ابن مسعود أن عند ناس كتاباً يعجبون به فلم يزل بهم حتى أتوه به فمحاه ثم قال: إنما هلك أهل الكتاب قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وتركوا كتاب ربهم».[4]

وهذا لا يعني أنّ الإسلام يحول بيننا وبين الوقوف على

---

(١) الدارمي: السنن، كتاب المقدمة، حديث (٤٣٥)

(٢) قال الحسن البصري: أي متحيّرون. (الجوهري. مختار الصحاح، ص٢٩٢)

(٣) أحمد، المسند، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم (١٤٧٣٦)

(٤) الدارمي: السنن. كتاب المقدمة، حديث رقم (٤٦٩)

ماعند الغير، وإنّما قُصِدَ منه منع التأثّر والذوبان في شخصيّة الغير. فلنا كياننا المستقلّ، ومنهجنا الواضح الذي لا لبس فيه، وعقيدتنا السمحاء التي صانها وحي الله. فلن يُقبل من هذه الأمّة أن تنحدر من أعلى إلى أدنى، ومن الثريّا إلى الثرى. **(قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير)** [البقرة: ٦١]

لقد أدّى بنا الاعجاب بالغرب والتأثّر به إلى تبعيّة عمياء، فتغرّبنا بسبب التغريب، حتّى بات الإسلام فينا غريباً غير مستساغ، وكأنّه غُصّة تقدمنا وتموّنا الحضاري. قال ﷺ: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء.**»[1] وفي رواية: «**إنّ الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يُصلحون ما أفسد النّاس من بعدي من سُنّتي**»[2]

كيف يُمكن أن نُبصر ماضينا بعيون غيرنا، وأن نفقه أحداثه بعقول من نصب لنا ولديننا العداء؟ لا بدّ من قاعدة مستقلّة متميّزة للانطلاقة الواعية نحو تراثنا التربوي، كي نرفد الحاضر بقيم الماضي، ونُلبس القديم ثوبه المتجدد.

يلزمنا تحديد الموقع، وبلورة الذاتيّة، لنُعزز مسيرة التغيير والتجديد بخُطىً ثابتة، قاعدتها الثقة المطلقة بالله وبفاعليّة شرعه، كي لاتكون مخاوف الإحباط والهزيمة من معوّقاتها

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، حديث رقم (١٤٥)؛ والترمذي، السنن، كتاب الإيمان، حديث (٢٦٢٩)؛ وابن ماجة، السنن، حديث (٣٩٨٦)؛ وأحمد، المسند، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، حديث (٣٧٧٥).

(٢) الترمذي، السنن، كتاب الأيمان، حديث رقم (٢٦٣٠)

(ولاتهنوا ولا تحـــزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مـــؤمنين) [آل عمران:١٣٩] ويلزمنا أيضاً ضبط الصفوف المؤمنة وتقويمها كي لا تتغيّر المواقف بين وقت وآخر بسبب وجود المعوّقين فيها. قال تعالى: (**قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلُمَّ إلينا، ولا يأتون البأس إلاّ قليلا، أشحّةً عليكم فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحّة على الخير، أولئك لم يُؤمنوا فأحبط الله أعملهُم، وكان ذلك على الله يسيرا**) [الأحزاب: ١٨ ـ ١٩]

إنّنا في أمسّ الحاجة إلى مناعة إيمانيّة تحول دون هبوط الأمّة، وانزواء كيانها، وتردي أبنائها، وليس من شكّ أو ريب أن المستقبل لهذا الدين، وأنّ القوامة الحقّة على الأمم لن تكون إلاّ لأمّة محمّد ﷺ، وأنّ الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده، فلا يأس ولا قنوط. فبين الاستضعاف، والتمكين والإمامة والوراثة، إرادة الله ومنّته، وهي ليست بعيدة عن عباده المؤمنين (**ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين**) [القصص: ٥] فقد تضعف ذاتيّة الأمّة وتنزوي، لكنّها لن تذوب أو تنتهي، يقول النّبي ﷺ: «**لو كان الدين عند الثُّريّا**[1] **لذهب به رجل من فارس أو قال من أبناء فارس حتّى يتناوله**»[2]، وفي رواية أنّ النبي ﷺ وضع يده على

---

(١) مجموعة من نجوم السّماء.

(٢) مسلم، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٢٥٤٦)؛ وأحمد، المسند، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم (٨٠٢٠).

سلمان الفارسي (رضي الله عنه) ثمّ قال: **«لو كان الإيمان عند الثريّا لناله رجال أو رجل من هؤلاء»**[1] ليبقى بريق الأمل بوعد الله قائما في نفوس أصحاب الحقّ مادامت البشريّة تستنشق أنفاس الحياة.

وإنّ ممّا يُثير الغرابة، ظهورُ بعض الاتجاهات العلمانيّة داخل محيط الأمّة الإسلاميّة، هدفت إلى تحقيق العصرنة والانتماء الغربي، وهذا ماظهر في كتابات أحد روّادها الذي دعا لأن يكون الأدب والعادات على غرار ماعند الغرب[2] فألّف كتاباً صرّح فيه: «أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب. يجب علينا أن نخرج من آسيا، وأن نلتحق بأوربا»[3] كذلك عزّز آخرون هذا الاتجاه، فظهر ذلك في قول أحدهم: «فأمّا الآن وقد عرفنا تاريخنا وأحسسنا أنفسنا، واستشعرنا العزّة والكرامة واستيقنّا أنّه ليس بيننا وبين الأوربيين فرق في الجوهر، ولا في الطبع، ولا في المزاج، فإنّي لاأخاف على المصريين أن يقفوا في الأوربيين»[4]

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم (٤٨٩٨)؛ ومسلم، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٢٥٤٦)؛ وأحمد، المسند، باقي مسند المكثرين، حديث رقم (٩١٣٤).

(٢) أنظر: محمّد محمّد حسين، الاتجاهات الوطنيّة في الأدب العربي المعاصر ٢/٢٠٧- ... (نقل المؤلف بعض تصريحات سلامة موسى، انظرها بالتفصيل.)

(٣) سلامة موسى، اليوم والغد، نُشر سنة ١٩٢٧م.

(٤) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر ص٥٤، ٥٥

لا شكّ في أنّ دعوة العلمنة في إطار هذا الاتجاه -الإلحادي أو التغريبي- الذي تفيأ ظلاله كثير ممّن يدّعي الانتماء لأمتنا كانت نتيجته على الأمّة وليست لها. وليس مستغرباً أن يظهر (الدخن) في صفوف الأمّة. قال الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه): «كان النّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرّ مخافة أن يدركني. فقلت: يارسول الله، إنّا كنّا في جاهليّة وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرّ؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشرّ من خير، قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة إلى أبواب جهنّم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يارسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلّها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتّى يدركك الموت وأنت على ذلك»[1]

(١) البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٦٠٦)، وكتاب الفتن حديث (٧٠٨٤)؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، حديث (١٨٤٧).

معوّقات في طريق التأصيل

اكتنف طريق التأصيل مشاكل كثيرة حالت دون انسيابيّة التعامل والاستفادة من التراث التربوي، وأصبح من العسير على أصحاب الرأي وقادة الفكر الإسلامي تحقيق وجهة التأصيل، وذلك لأسباب عدّة، نذكر منها:

١- ازدياد الانحدار التربوي، ومغايرة توجّهات معظم النّاس لوجهة الدين، وأخلاق الإسلام، وذلك في تصوراتهم وتعاملاتهم. بل يصعب أن نجد لمحصلات التراث أرضيّة واقعيّة نختبر من خلالها مصداقيّة التعامل، وأولويات الأخذ، وسلامة القصد.

٢- لم تُتح الفرصة لعناصر التراث أن تعيش ثوبها المتجدد، ولا للقيم الإسلاميّة أن تعيش واقع النّاس، وتعكس صدق فاعليتها، ومصداقيّة أصحابها، وكأنّ غُربة الدين بدت واقعاً محققاً تعكس صدق وعد رسول الله ﷺ حيث يقول: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء.**»[1] فلم تكن غربة الدين في حدوثه ووجوده، فالقرآن بين أيدينا، وسنّة رسول الله ﷺ تزيّنت بها مكتباتنا، وإنّما في التعامل معه، ومعايشة قيمه وتشريعاته وأحكامه.

---

(١) سبق تخريجه ص ١٥

٣- تعذّر الاحاطة الدقيقة والشاملة بقضايا التراث، وما ارتبط بها من عناصر الثقافة الاسلامية على مرّ العصور ، فالاسلام انتشر سريعا في القرون الاولى حيث «امتدّ في فترة وجيزة من أطراف خراسان الشرقية ،حتى أفريقية (تونس) ، ومن شرق الاناضول حتى البحر العربي ، وهي منطقة تبلغ مساحتها (٣.٥٠٠.٠٠٠) ميل مربع»[١] بل واتسع أكثر من ذلك في القرون التالية.

٤- مع اتساع دائرة الفكر التربوي ضمّت المكتبات الاسلامية كمّا هائلا من مصادر التراث ، وقدراً لايقلّ أهميّة عن سابقه من المراجع والأبحاث في مجال الدراسات الإسلاميّة ، ممّا شكّل هالة عظيمة أخذ نطاقها يتسع يوما بعد يوم أمام الباحثين في قضايا التراث، وأصبح من العسير على الباحث الإلمام بحدود المصادر والمراجع، خصوصا في إطار حالة الفوضى، وعدم تنسيق الجهود.

٥- يستلزم تحديد معالم التراث الإسلامي تقصّي الأخبار والآثار التي لاحصر لها، وهي عملية ليست يسيرة، والأصعب منها مرحلة الاختيار والانتقاء بما يتوافق ومستلزمات واقع التأصيل، ثمّ تحديد الضوابط التي تحكم ذلك كلّه .

---

(١) أكرم العمري : التعليم في عصر السيرة والراشدين (بحث في المؤسسات والممارسات) المجلّد الأول (المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلاميّة)

٦- كثرة الروايات والآثار والنصوص التي تضمنتها مصادر الفكر الإسلامي، من غير تصنيف أو تبويب وتنظيم، أضافت جهداً كبيراً على الباحث في تحرّي صحّة النصوص ، واعتماد السليم منها ، لذا يتوجّب الخوض في مصادر التراث ، واعتماد أفضل السبل والوسائل لغربلة الروايات وتمحيصها .

٧- ظهرت كتابات كثيرة في الفكر الإسلامي، لاتستند في تقرير المبادىء والقيم التربوية الإسلاميّة على الأسس الصحيحة المستقاة من الكتاب والسنّة، وأقوال السلف الصالح، وبالتالي تفتقر إلى طابع الأصالة، ممّا تسببت في عرقلة وجهة التأصيل.

كما تساهَلَ كثير من المؤلفين في ذكر الشواهد والأحداث، مثل الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة، أو الموضوعة، أو الاعتماد على روايات لأحداث لم تثبت تاريخيا ، دون التنبيه على ذلك. وهذا الأمر أدّى إلى زعزعة الثقة في التعامل مع التراث .

٨- ضَعْف النظرة الشمولية المتكاملة للتراث، وقيام بعض الباحثين بتقرير أسس ومبادىء إسلاميّة من خلال النظرة الجزئية إلى بعض قضاياه دون سعة اطلاع وبحث واستقصاء، أو تحليل علمي دقيق متكامل للشواهد والأحداث، ممّا أحدث حالة من القصور الفكري في تصوّر معطيات التراث.

٩- بسبب عدم وجود خطة موحدة وشاملة لعرض عناصر التراث الإسلامي، أدّى ذلك إلى تداخل كبير في الآراء والاتجاهات، وإلى تكرار ممل، فغالبا ماياخذ بعض المؤلفين عن غيرهم دون إضافة علمية مفيدة بحيث ثقلت المكتبة التربوية الاسلامية بزخم هائل في الكم دون عطاء جديد يناسبه.

١٠- ظهر الاهتمام بجهاز الحاسوب لخدمة الباحثين والمهتمّين في العلوم الإسلاميّة، وبدأت شركات عالميّة جهودها بعمل وإصدار موسوعات متميّزة للقرآن الكريم وتفسيره، ولكتب الحديث، والتراجم، والمواريث في الشريعة الإسلاميّة، وأخيراً الموسوعة الذهبية في الحديث النبوي الشريف وعلومه، إلى غير ذلك، لتيسير التعامل معها بسرعة واتقان. لكن للأسف يندر أن نجد عند المختصّين في مجال الشريعة، والمهتمين بقضايا التراث الإسلامي، من يُولي هذا الأمر اهتماماً، أو يحاول اختصار الجهد والزمن من خلال الاستفادة من هذه التقنيّة الفائقة، إمّا بسبب العوامل الاقتصاديّة التي يُعاني منها كثير من أهل التخصص، وعدم القدرة على متابعة التطور الهائل في مجال الحاسوب، يُضاف إليه وجود التقصير في الانفاق من قبل بعض الدول الإسلاميّة على مجالات البحث العلمي؛ أو بسبب عدم الرغبة في التعامل مع التقنيّة الحديثة، حيث لم يطّلع كثير من حملة علوم الشريعة على إمكانات هذه التقنيّة، حتّى يقدّروا مدى حاجة الباحث إليها.

وبعد هذا العرض لأهمّ الأسباب التي عرقلت مسيرة التأصيل، وحالت دون تحقيق الأصالة في مسيرتنا التربويّة، ينبغي الإشارة إلى بعض العوامل التي يمكن أن تسهم في تيسير وجهة التأصيل، أذكر منها:

١- سلامة القصد، ومصداقيّة الهدف، واحترام العطاء الفكري لماضي الأمّة، ونتاج علمائها.

٢- وجود رغبة حقيقيّة نحو التأصيل، لتحقيق استقلالية القيم والذاتية في واقع أمّتنا، وحياة أفرادها. لتكون الجديّة في الوجهة عاملاً فاعلاً في تحقيق الهدف من تأصيل الواقع الإسلامي.

٣- العدول عن النظرة الجزئية المبتورة القاصرة، التي حكم بعضنا من خلالها على التراث الإسلامي، إلى النّظرة الشاملة لتحقيق عدالة الحكم وكمال التصوّر.

٤- يلزمنا توسيع دائرة فقه الثوابت والمتغيّرات في هذا الدين، لتكون الثوابت منابع استقاء، وتكون المتغيّرات معينُ إبداع، ويكون صدق التوجّه إلى الباري عزّ وجلّ معين أنوار المسار، فتجتمع للمؤمن الهدايتان، هداية الطريق، وهداية التوفيق.

٥- الانتقاء الأمثل للأحداث والنّصوص، لاعتماد الصحيح منها، بغية تشكيل أسس وقواعد تربويّة تصلح لبناء صرح تربوي متكامل، يتّسم بالثبات والاستمرار.

٦- مرونة الأخذ من دائرة الأحكام الشرعيّة، بما يتلاءم وإمكانية التغيير والإصلاح، على أن يكون الأخذ ممّا يحقق الخير للأمّة، بعيداً عن المزاجيّة، أو الرغبة المجرّدة عن تحقيق المصالح المعتبرة شرعاً.

٧- معرفة أسباب الحدث أو الحكم أو النّص، حتّى يتمكن أصحاب الفكر من القياس التربوي بين الحالات والمواقف المتشابهة، لمعالجة المتغيّرات بسبب الفوارق الزمانيّة والمكانيّة، ومعالجة الجديد أو التجديد.

٨- إيجاد قاسم مشترك بين الجماعات الإسلاميّة في طريقة النّظرة إلى التراث، والتعامل معه، تجنّباً لتشتت الجهود، وفقدان المصداقيّة، وتضادّ الآراء والاتجاهات. فجماعيّة الوجهة في التعامل تحقق كمال الأخذ عن التراث، وشمولية الفائدة.

لماضينا أم لحاضرنا ؟

ليس من الضروري ونحن نعيش في العقد الأخير من القرن العشرين، أن تكون صورة عن الماضي أو جذوة منه، وذلك في طريق الدعوة للعودة إليه، وموضوعية الأخذ عنه. فلا يلزمنا إذا ماتمثلنا قيم وأنماط التربية السلوكية عند الإمام أحمد بن حنبل – مثلاً– أن تكون حياتنا من خلال الأخذ بها متطبعة في الأداء بنفس الطابع الذي تمثل في سيرته، فواقع عصره له مميزاته وخصائصه. وهذا لايعني تجاوز منظومة الحقّ التي عاشها سلفنا الصالح، فالحقّ حقّ ولوكان قديما، والباطل باطل ولوكان حديثا، وانّما قصدنا الأخذ عن الماضي، وليس أخذ الماضي، فجمال الإبداع في حياتنا يكون حينما تمتزج قيم أصالتنا بحركة التجديد، الذي يرسم معالمه أهل الإيمان، لا الذي يقرره أهل الفسق والفجور.

ينبغي أن لا تدفعنا عواطف الانتماء لعشق ذات ماضينا فحسب، بل ينبغي الانبساط في ظلال القيم التي نتجت عنها اشراقة الماضي، خصوصاً وأنّ ماضينا الإسلامي عكس ممارسات المجتمع المسلم في واقع إسلامي، أعتُرك فيه المنهج، وباتت في ظلاله معالم الهُدى. وحينما يكون الخطأ في ممارسات البشر،

قصرده إلى ذات الممارسات، وليس إلى طبيعة المنهج، لأنّ شرع الله أحكم وسُدد **(لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد)** [فصلت: ٤٢].

إنّ الأخذ عن القديم لايعني العيش في منظومته، ولا أخذ كلّ ما فيه، لذا ينبغي التفريق بين فاعلية القيم الإسلامية كونها خصائص ذاتية، وبين انعكاساتها في واقع المجتمعات التي تعاملت من خلالها. فالأول يمثل الأصل والمصدر، والثاني يمثل التجربة وتراكم الخبرة والمعرفة، ولكلّ مجتمع نصيب مما كسب **(تلك أمّة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولا تُسئلون عمّا كانوا يعملون)** [البقرة: ١٤١] على أن تبقى بصائر أهل الإيمان أداة غربلة وتمحيص.

ومع اعتزازنا بماضينا إلاّ انّ جهود الإصلاح لابدّ أن تتوجّه نحو صياغة الواقع، والاعداد للمستقبل، لذا ينبغي ضبط حركة التأصيل والتجديد وفق هذا التوجّه، وضمن هذا الإطار. فإذا أردنا أن نُعالج الأخطاء والسلبيات فلتنصبّ جميع الجهود نحو معالجة الحاضر وسلبياته، وليس الماضي لأنّ الماضي لن يعود، على أن لانفقد العبرة والعظة من أحداثه، لتكون منطلقاً نحو تصحيح الواقع وإصلاحه. فليس من الضروري أن نجعل لأنفسنا في كلّ حادثة مضت في تاريخنا موطىء قدم، في الوقت الذي لم نجد لنا في واقع اليوم موطىء قدم.

لقد أضحت عيون العالم إلى الأمام، وباتت عيوننا إلى الوراء، فتعثّرت الخطى نحو تحقيق عالميّة هذا الدين وواقعيّته، ونحن نعلم أنّ الباري عزّ وجلّ صرفنا عن الانشغال بملابسات الماضي وسلبياته فقال: **(تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسئلون عمّا كانوا يعملون)** [البقرة: ١٤١]، وقال: **(يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فيُنبئكم بما كنتم تعملون)** [المائدة: ١٠٥]

هل صراعنا الحالي مع من ينصب لنا ولدين الله العداء، أم مع فرقة النّواصب التي غارت واندثرت في صفحات التاريخ؟ ولا أعني بذلك تجاوز أخطاء الماضي دون عبرة، بقدر ما نتجاوز زمن الماضي وملابساته، لأنّنا سنُسأل يوم القيامة عن زماننا، وليس عن زمانهم، قال ﷺ: **«لا تزول قدما عبْدٍ يوم القيامة حتّى يُسأل عن عمره فيما أفناه»**[1] وليس يُسأل عن عمر غيره.

علينا أن لا نعيش أحزان الماضي، وآلام أحداثه، فنستمرّ

---

(١) تتمة الحديث: «وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» (الترمذي، الصحيح، كتاب صفة القيامة، حديث رقم (٢٤١٧) (واللفظ له)؛ والدارمي، السنن، كتاب المقدمة، حديث رقم (٥٣٧).

حياتنا بيت عزاء ليس لمأتمه نهاية. فلا يسعنا أن نجدد العزاء في كلّ عام على مقتل الحسين[1] (ت: ٦١ هـ) (رضي الله عنه) في الوقت الذي يتجدد العزاء في حياتنا بين الحين والآخر بمقتل أصحاب الحقّ، وأتباع الرسالة.

نحن بحاجة لأن نتحسس محنة الإسلام ومصاب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، أكثر من حاجتنا لأن نعيش محنة الإمام أحمد بن حنبل[2] التي انقضت واندثرت، وبقيت محنة الإسلام تلوح في أفق كلّ مشرق، وليس لنهايتها مغرب.

ولا يعني ذلك أنّنا نتهم عشّاق الماضي بالتعصب والمغالاة

---

(١) الحسين الشهيد الإمام الشريف، سبط رسول الله ص وريحانته من الدنيا، ومحبوبه، أبو عبد الله أمير المؤمنين، كان لمقتله حادث مؤلم، ومصاب عظيم، توفي شهيداً في كربلاء بالعراق قرب الكوفة سنة ٦١ هـ. (أنظر ترجمته وحادثة استشهاده في: الطبري، تاريخ ٣٤٧/٥، الخطيب، تاريخ بغداد ١٤١/١، والذهبي، تاريخ الإسلام ٣٤٠/٢؛ وابن كثير، البداية والنّهاية ١٤٩/٨، والأعلام للزركلي، ٢٤٣/٢)

(٢) هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني. كان إمام المحدثين ومن الأئمّة الأعلام، وُلد بمرو سنة (١٦٤ هـ) وحُمل إلى بغداد وهو رضيع، وكان رأساً في الزّهد والورع والصبر على البلاء. أمتُحن وابتلي عندما دُعي إلى القول بخلق القرآن أيّام المعتصم، فضُرب وسُجن، وبقي في الحبس إلى أن مات المعتصم، فلمّا ولي الواثق منعه من الخروج من داره، ولمّا جاء المتوكل أكرمه ورفع المحنة. كتابه في الحديث هو «المسند». تُوفي ببغداد سنة (٢٤١ هـ). (الذهبي، سير اعلام النبلاء ٧٧/١١؛ ابن كثير، البداية والنّهاية ٣٢٥/١٠)

ونحن من عشّاقه،لكن تجاوز حدود الموضوعيّة تبعث الغرابة والاستهجان،وكياسة المؤمن أجدر بأن تحكم في مثل ذلك.

ينبغي أن لايكون تعاملنا لذات التراث فحسب، بل للدخول إلى عالم الواقع من خلاله، بعد أن يسلم المنطلق ببركة الإخلاص وصدق النيّة، ويتضح الطريق بنور الهداية، لتلوح كرامة الأمّة في آفاق هذا العالم ببركة وعد الله الذي لايُخلف. **(وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ولَيُبَدِّلَنَّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)** [النور: ٥٥].

إنّ التعامل مع الماضي قد يُوجد شعوراً عميقاً بالصحبة وحب التقليد، فينسى المرء عصره في نشوة إشراقة ماضيه، فتختل الموازنة بين ماهو واقع معايش، وبين ماهو ماض مشرق، فينبغي أن لا يحول ذلك دون التفاعل الهادف مع معطيات الواقع.

ليس غريباً أن يتمثّل البعد الحضاري في سلوك وعطاء أتباع الدين الإسلامي، لذلك لا يجوز أن تستهوينا العواطف المجرّدة عن الفاعليّة، وتنأى بنا الغفلة، فتجعلنا في عزلة عن واقعنا، وفتور في التفاعل معه. ولا أعني بذلك التعايش مع كلّ مايتصل بالواقع دون اكتراث بالقيم الإسلاميّة، وإنّما الرغبة في تحقيق الوراثة الإيمانيّة **(إنّ الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده**

والعاقبة للمتقين) [الأعراف: ١٢٨].

لقد أحدث النقد المتواصل للواقع فجوة واسعة حالت دون المشاركة الفاعلة في إصلاحه، وبدت النظرة العامّة نحو دعاة الإصلاح تأخذ طريق العداء لهم ولدين الله الذي حملوا رايته.

ليس بالضرورة أن تكون سمة التطرّف التي أصبحت مدار اتهامنا، كامل أسبابها انعكاس الحقد الدفين، الذي يكنّه أعداء هذا الدين، لأمّة الإسلام. ما الذي يمنع من أن نتلمس الخلل في انعكاس الأسلوب والوسائل التي اعتمدناها في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفحصها بأسلوب علمي متوازن، لندرك بوضوح مواطن الخلل؟ وهل من عيب إذا ما أعدنا النظر في سلوكيات الدعاة إلى الله، قبل أن يُعجزنا البحث في أسباب صدّ النّاس عنهم؟ فدُعاتنا ليسوا ملائكة منزهين عن الخطأ، أو أنبياء ورسلا لازمهم وحي الله في أقوالهم وأفعالهم. نحن بشر نُخطىء ونُصيب، وقد يبلغ بنا حجم الخطأ أحيانا لدرجة أنّه يمجّ بسببه بعضنا بعضا، ناهيك عن الذي ينصب لنا العداء، ويعدّ لنا السقطات، ويتربّص بنا الدوائر.

نحن لانملك الحيلولة دون مواجهة آثار ومخلفات وتراكمات هذا الواقع، ولامناص من الاصطدام بنتائجه، في الوقت الذي أصبحت فيه حركة البعث والنهوض ضرورة دينيّة وحضاريّة، لأجل الرقيّ بالأمّة إلى مستوى الشهود الحضاري، لنعيد لها حقّها المغتصب في قيادة العالم.

حفظ الدين وحتميّة التجديد

إنّ من سمات منهج الله الدوام والاستمرار، يمضي حيث تمضي حياة البشر، بأصول ثابتة حُفظت بوعد الله **(إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون)** [الحجر: ٩] وحفظُ الدين وعدُ إلهي لاريب فيه، فمن غير المعقول أن تتوقف فاعليّته الحضاريّة عند جيل من الأجيال أو زمن من الأزمان أو في مكان ما.

ولا بدّ من جماعة مؤمنة تقوم على أمر حفظ الدين، لاتتوقف فيها أنفاس الحقّ، تحقيقاً لوعد رسول الله ﷺ حيث يقول: **«لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم حتّى يأتي أمر الله وهم كذلك»**[1] وفي رواية أنّه قال: **«إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمّتي منصورين لا يضرّهم من خذلهم حتّى تقوم السّاعة»**[2].

وحتّى إن حدث الخلل في صفوف الأمّة، الحامية لدين الله، فإنّ الباري عزّ وجلّ سيهيئ كامل أسباب الحماية لدينه، وإن لزم الأمر التبديل والتغيير، قال تعالى: **(ها أنتم هؤلاء تُدعون**

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، حديث رقم (٧٣١١)؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، حديث (١٩٢٠).

(٢) الترمذي، السنن، كتاب الفتن، حديث رقم (٢١٩٢)

لتُنفقوا في سبيل الله، فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنّما يبخل على نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء، وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم) [محمد:٣٨]

ومن هنا يلزمنا الحفاظ على وحدة الجماعة في ظلال منهج الله، لأجل استمراريّة فاعليتها الحضاريّة. فلايجوز لنا أن تشتت الصفوف، ونبعثر الجهود، مهما كانت الذرائع والأسباب. قال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) [آل عمران: ١٠٣] وقال: (ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البيّنات، وأولئك لهم عذاب عظيم) [آل عمران: ١٠٥] وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال».[1] لذلك حرص رسول الله ﷺ على لُحمة الجماعة ووحدتها، فلم يرض لأصحابه أن يتفرّقوا مهما كانت الظروف، فعن أبي ثعلبة الخُشني أنّه قال: كان النّاس

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الأقضية، حديث رقم (١٧١٥)؛ وأحمد، المسند، باب باقي مسند المكثرين، حديث رقم (٨٥٠١).

إذا نزلوا منزلاً [1] تفرّقوا في الشعاب والأودية، فقال رسول الله ﷺ إنّ تفرّقكم في هذه الشّعاب والأودية إنّما ذلكم من الشيطان، فلم ينزل بعد ذلك منزلاً إلاّ انضمّ بعضهم إلى بعض حتّى يُقال: لو بُسط عليهم ثوب لعمّهم.[2]

ومن هنا فقد حذّر النّبي ﷺ أمّته من عاقبة التفرّق والتشتّت، والعدول عن الجماعة، ووحدة المجموعة، فقال: «إنّ أهل الكتابَين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملّة، وإنّ هذه الأمّة ستفترق على ثلاث وسبعين ملّة [يعني الأهواء]، كلّها في النّار إلاّ واحدة وهي الجماعة، وإنّه سيخرج في أمّتي أقوام تَجارى[3] بهم تلك الأهواء كما يَتَجارى الكَلَبُ بصاحبه[4]، لا يبقى منه عِرق ولا مَفصل إلاّ دخله، والله يامعشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيّكم ﷺ لغيركم من النّاس أحرى أن لا يقوم به».[5]

ولكي تستمرّ فاعليّة دين الله في حياة البشر أصبح من

---

(١) وفي رواية: إذا نزل رسول الله ﷺ منزلاً ...

(٢) أبو داود، السنن، كتاب الجهاد، حديث رقم (٢٦٢٨)؛ وأحمد، المسند، حديث رقم (١٧٢٨٢)

(٣) أي يتواقعون في الأهواء الفاسدة

(٤) داء معروف يعرض للكلب فمن عضّه قتله.

(٥) أحمد، المسند، كتاب مسند الشاميّين، حديث رقم (١٦٤٩٠) (واللفظ له)؛ وأبو داود، السنن، كتاب السنّة، حديث رقم (٤٥٩٧).

الضروري لحركة التجديد أن تأخذ حيزاً من وجهة التأصيل بشرط أن لاتخرج عن مرادات الشارع، ولا تنزوي عن حدود الاجتهادات الممكنة، لتحول دون عزل الدين عن الواقع بحجّة الفارق الزمني بين القديم والجديد، وبذلك نكون قد حققنا أبرز سمات الرسالة الإسلاميّة المتمثلة في عالميّة هذا الدين واستمراريّته، قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ: **(وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين)** [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: **(وما أرسلناك إلاّ كافّة للنّاس بشيراً ونذيراً، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون)** [سبأ: ٢٨]

ومن هنا ينبغي التفريق بين الجديد والتجديد، بين النّصوص الشرعيّة قطعيّة الدلالة، والظنيّة منها، بين الرغبة في التجديد بسبب الميل نحو كلّ ماهو جديد، وبين الرغبة في سيادة دين الله واقعنا وحياتنا بفاعليّة حضاريّة تحقق الشهود العالمي لجماعة المسلمين **(وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيدا)** [البقرة:١٤٣]

لقد شاءت حكمة الله أن يكون من مصادر دينه ماهو قطعي الدلالة لايحتمل التغيير ولا التبديل لحصول الثوابت والمرتكزات التي تمثّل الانطلاقة نحو التجديد والتغيير؛ وماهو ظنّيّ الدلالة، ليتسع طريق الاجتهاد والنّظر، وليكون التجديد في هذا الدين ممكنا وفق تجدد الحاجات واتساع المطالب.

ولا ريب فإنّ مخاوف التجديد ستضمحلّ إذا أحسنّا التعامل مع تراثنا وأصول ديننا، والعمل بأحكام الله في إطار المنهج الإسلامي الذي يُراعي ثوابت المنهج، ومرونة التطبيق، بموضوعيّة لا نقد فيها ماضينا من أجل حاضرنا، ولا نعتزل الواقع الذي أصبحنا جزءاً من كيانه. فوجهة التجديد لم تكن بدعة في هذا الدين كما يدّعيها بعض النّاس، بل هي ضرورة حتميّة للتوافق - وليس التوفيق - بين المنطلق والمستقرّ، بين المنهج والواقع. يقول النّبي ﷺ: **«إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يُجدّد لها دينها»**[1] لتتحقق العالميّة والاستمراريّة للمنهج الإلهي في واقع البشريّة رغم تغيّر الزمان والمكان.

(١) أبو داود، السنن، كتاب الملاحم، حديث رقم (٤٢٩١)

نظرة في السيرة النبويّة

تُمثّل السيرة النّبويّة المطهرة وعاء الأحداث التي صانها وحي الله، حيث تفاعل في ظلالها أفراد المجتمع الإسلامي مع عناصر المنهج الرباني الذي تتابع نزوله منجماً وفق الأحداث، ووفق متطلبات المجتمع المسلم، ليتمكن الأتباع من الأداء الأمثل في أجواء إيمانية ترقى بهم من فقه الدين إلى فقه العمل بمقتضاه.

لقد عكست السيرة النّبويّة الأداء المتكامل لتعاليم الإسلام الذي تمثّل في سلوك المصطفى محمّد ﷺ، لذا فإنّ أصحابه (رضي الله عنهم) كانوا يُدركون أهميّتها في حياتهم، قال سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه): «كنا نعلم أولادنا مغازي رسول الله ﷺ كما نعلمهم السورة من القرآن». كما وعدّها العلماء من أجلّ وأعظم العلوم الإسلاميّة بعد كتاب الله. يقول الإمام ابن حجر في بيانه للعلوم الشرعيّة: «ولا يرتاب عاقل في أنّ مدارها على كتاب الله المقتفى، وسنّة نبيّه المصطفى، وأنّ باقي العلوم إمّا آلات لفهمهما، وهي الضالّة المطلوبة، أو أجنبيّة عنهما، وهي الضارّة المغلوبة»[1]

لقد أحدث المنهج التربوي الذي رسم معالمه رسول الله ﷺ

(١) ابن حجر، فتح الباري ١/ ٥

تغييراً هائلاً في حياة العرب، وأدخلهم مُدخلاً كريماً في سجّل التأريخ الإنساني. فعلى الرغم من تأثّرهم بالطبيعة الجغرافيّة والمناخيّة، وما صاحب ذلك من تقلّب في أنماط حياتهم الإجتماعية والسياسية، إلاّ انّ القيم التربويّة التي حملتها الرسالة الجديدة عكست آثاراً إيجابيّة لانظير لها في عطاءات الأمم. «فمن غير المعقول أن يصبح البدوي الذي أظلّته خيمة وبَر، ومازجت أنفاسه رمال الصحراء، سيّد الحضارة، وسبب رقيّها واتساع آفاقها». لذا فإنّ القرآن الكريم يقرّر حقيقة النقلة الحضارية التي شهدها المجتمع العربي بعد أن منّ الله عليه بظهور الاسلام، قال تعالى: **(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيّدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلّكم تشكرون)** [الأنفال:٢٦]وقال: **(وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها)** [آل عمران:١٠٢]

ينبغي أن تتجدّد أحداث السيرة النّبويّة في حياتنا -من حيث العبرة والعظة والاقتداء- لترسم لنا معالم الهدى لمن أراد أن يسلك طريق الفوز والنجاة، حيث زخرت تلك الأحداث بمواقف شاملة لمناحي الحياة، وموجّهة لحركة المؤمن خلال رحلته في عالم الدنيا، ومن ثمّ امتدّت - بشموليتها واتساع آفاقها - لتشمل إعداد الإنسان للحياة الأخرويّة، والسعادة الدائمة؛ لذا كان لابدّ من نظرة موضوعيّة للسيرة النّبويّة، خصوصاً وأنّها تُعدّ وحدة قياس تربوي بسبب تطابق عناصر المنهج الرباني مع الأداء البشري، حيث كان خُلق النبي ﷺ القرآن الكريم، وقد أمرنا

الباري عزّ وجلّ أن نجعله القدوة والأسوة الحسنة لنا، وذلك بقوله: **(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)** [الأحزاب: ٢١] وكان أصحابه الكرام (رضوان الله تعالى عليهم) خير أجيال المكلفين، وهم الذين تحققت في حياتهم جميع مستلزمات تطبيق منهج الله. قال تعالى في وصفهم: **(كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)** [آل عمران: ١١٠] وقال تعالى: **(وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيدا)** [البقرة: ١٤٢] وقال النّبي ﷺ: **«خير النّاس قرني ثمّ الذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم»**[1]

ومن هنا تظهر أهميّة دراسة السيرة النبوية لتقويم الحياة العملية للمجتمعات الاسلامية، وقياس مدى ملاءمتها لمقتضيات المنهج الالهي الذي تبلور في عصر السيرة بأكمل وجه قدّر له أن يكون في حياة البشريّة، على أن تكون القاعدة الإيمانيّة هي التي تحكم توجيهات من يتصدّر الكتابة عن السيرة النّبويّة، كي يُدركوا هيبة الأحداث التي صانها الوحي الإلهي الذي **(لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد)** [فصلت: ٤٢] فما كان لرسول الله ﷺ أن يتقول خلاف مانزل عليه من كلام الله **(ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا**

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب الشهادات، حديث رقم (٢٥٠٩)، ؛ ومسلم، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٢٥٣٣)؛ والترمذي، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٨٥٩).

منه باليمين ثمّ لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين) [الحاقّة: ٤٤-٤٧] وما وسع رسول الله ﷺ أن يتجاوز في الأداء حدود المطلب الالهي حيث كان «خلقه القرآن» فعن سعد بن هشام بن عامر (رضي الله عنه) قال: «أتيت عائشة رضي الله عنها فقلت يا أمّ المؤمنين أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ قول الله عزّ وجلّ **(وإنّك لعلى خلق عظيم)** [القلم: ٤] قلت: فإنّي أريد أن أتبتل، قالت: لاتفعل، أما تقرأ **(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)** [الأحزاب: ٢١] فقد تزوّج رسول الله ﷺ وقد وُلد له».[1]

وبسبب سيادة مناهج البحث المتأثرة بالفكر الغربي، المجردة من دوافع الإيمان، الإيمان الذي كان من وراء رسم معالم الأحداث التي عكستها ممارسات المجتمعات الإسلاميّة في واقع حياتها، وكذلك عدم توفّر القاعدة الايمانية التي تلزم من يتصدر الحديث عن التأريخ الإسلامي بشكل عام، والسيرة النبويّة على وجه الخصوص، نجد أنّ كثيراً من المستشرقين شطّوا في تصوراتهم للأحداث، وفي حكمهم على معطيات الفكر الإسلامي عبر قرونه، فقصروا عن فهم دوافع السلوك في ضوء الوجهة التأريخيّة المجرّدة، لأنّ الوصف التاريخي للحدث قد يرسم حدوده، ويصور معالمه، لكن في إطار هذه المنهجية يصعب رسم الأبعاد الايمانية والأهداف التربويّة الدعويّة التي كانت تمثل محور الأحداث، ودوافعها الفاعلة.

---

(١) الإمام أحمد، المسند، حديث رقم (٢٤٠٨٠)

نظرة في جيل الصحابة

من الخطأ أن نتصوّر جيل الصحابة خارج بشريتهم، ولزوم صفاتها، قال تعالى مخاطباً إيّاهم: **(الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفا...)** [الأنفال:٦٦] وقال تعالى: **(أحلّ لكم ليلة الصيام الرّفثُ إلى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم، فالآن باشروهنّ وابتغوا ماكتب الله لكم ...)** [البقرة:١٨٧] فعلى الرغم من أنّ واقع الصحابة يرسم الصورة المثالية في اخلاص النيات، وصدق التوجه الخالص لله، لكن ذلك لاينفي عن بعضهم تأثره بالعوامل المادية، لذا كشف القرآن الكريم عن بعض الثغرات التي تخلّلت أداء الصحابة، مثل خلافهم على الفيء بعد (معركة بدر) قال تعالى: **(يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرّسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)** [الأنفال:١] وكذلك بعض الأخطاء التي حدثت من بعض الصحابة في (معركة أحد) والتي حالت دون اكتمال النّصر، قال تعالى مخاطباً أصحاب النّبي ﷺ: **(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه، حتّى إذا فشلتم وتنازعتم**

في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبّون، منكم من يُريد الدنيا ومنكم من يُريد الآخرة ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) [آل عمران: ١٥٢][1]

ومهما رقى المجتمع البشري في سلّم الطاعات، نجد فيه الصفوة التي تلتزم المثل العليا، وفيه دون ذلك، بل وفيه من يأخذ بالحدّ الأدنى الذي يحقق صفة الاسلام، فعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أنّ رجلا سأل رسول الله ﷺ، فقال: أرأيت إذا صليت الصلوات المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرّمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئا أأدخل الجنّة؟ قال: نعم.قال والله لا أزيد على ذلك شيئا.[2]

ولمّا كان مجتمع الصحابة مجتمعاً بشرياً فقد راعى الحقّ سبحانه وتعالى ذلك في إطار مقتضى التغيير، فكان لتدرج نزول الآيات القرآنية على رسول الله ﷺ أثر واضح في حياتهم، ممّا أدّى إلى البناء التربوي المنتظم والمتناسق مع طبيعة المراحل في العهدين، المكي والمدني.

---

(١) أنظر تفسير الآية في : ابن كثير، مج (١) ، وسيّد قطب، في ظلال القرآن مج (١).

(٢) الإمام مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، حديث رقم (١٥)، والإمام أحمد، المسند، باقي مسند المكثرين، حديث رقم (١٤٣٣٧). وفي مسند الإمام أحمد ورد انّه النّعمان بن قوقل. (أنظر نفس المصدر المشار إليه في المتن)

ومن هنا فقد أكد الإسلام على أهمية التدرج المرحلي في بناء الشخصية الإسلامية؛ كي يبقى التوازن والتنسيق قائما بين مقدار الاكتساب، وبين طبيعة البشر التي أودعها الله فيهم. قالت السيدة عائشة (رضي الله عنها): «إنّما نزل -أي القرآن- أول ما نزل منه سورة من المفصّل، فيها ذكر الجنّة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدا. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإنّي لجارية ألعب، **[بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر]** [القمر: ٤٦]. وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[1]

وكذلك ورد عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنّه قال: «كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ».[2] وفي قوله تعالى: **(كونوا ربانيين)** [آل عمران: ٧٩] قال ابن عبّاس: «حلماء فقهاء، ويُقال الرباني من يربي النّاس بصغار العلم قبل كباره.»[3]

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، حديث رقم (٤٩٩٣).

(٢) الطبري، جامع البيان ١/ ٨٠؛ ابن كثير، تفسير القرآن ١/ ٣ من مقدمة التفسير.

(٣) البخاري،الصحيح،كتاب العلم،باب: العلم قبل العمل والقول (١/ ٣٧)

وعندما يكون الخلل في ثمار العمل الذي يعكس أداء الصحابة يأتي التوجيه القرآني ليرسم لهم معالم طريق الهداية، ويستدرك التأثير السلبي الذي يحول دون اكتمال الأداء، صيانة لجيل التنزيل ومجتمع القدوة، وهذا الذي حدث يوم أحد حينما عزا الحقّ سبحانه وتعالى، الأخطاء التي اعترضت الأداء الجهادي لبعض الصحابة، إلى عوامل دنيويّة، قال تعالى في كتابه الكريم مخاطباً إيّاهم: **(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)** [آل عمران: ١٥٢] فأساس الخلل في الأداء مردّه إلى محبّة الدنيا التي أسرّت- في لحظة الضعف البشري- بعض القلوب المؤمنة، وذلك في موطن البلاء والاختبار.

وفي موقف آخر كانت اشارة القرآن الكريم واضحة جليّة في تعليل تردد بعض أصحاب رسول الله ﷺ في الخروج إلى غزوة تبوك، حيث غلبتهم ثُقلة الأرض، ومغريات الحياة، قال تعالى معاتباً من تخلّف عن المعركة: **(يا أيّها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل، إلاّ تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً ويستبدل غيركم ولا تضرّوه شيئاً والله على كلّ شيء قدير)** [التوبة: ٣٨، ٣٩][1]

---

(١) أنظر: سيد قطب، ٣/١٦٥٥، وابن كثير، تفسير الآية.

إنَّ السمة الظاهرة لسلوك الصحابة (رضي الله عنهم) أنَّ دوافعه عقديّة تأثرت بالثواب الأخروي والتطلع إلى ماعند الله تبارك وتعالى، فكان التوجه الذاتي إلى اخلاص النيّة لله تعالى قائما، يتطلّع إلى اشراقته صفوة المؤمنين الذين يبتغون الله والدار الآخرة.

كيف يمكن أن نفسر الأبعاد الإيمانيّة للداقعيّة التي جعلت صحابيّاً من أصحاب رسول الله ﷺ يرمي تلك التمرات في لحظة الحاجة إليها ليتسارع إلى طاحونة الجهاد، وقلب المعركة، وهو يقول: بَخٍ بَخٍ، إنّها لحياة طويلة. وذلك يوم بدر عندما دنا المشركون من مكان بدر، وتقابل الجمعان، فقال رسول الله ﷺ مخاطباً أصحابه: «قوموا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض» فقال عُمير بن الحُمام الأنصاري: يارسول الله، جنّة عرضها السماوات والأرض، قال: نعم، قال: بَخٍ بَخٍ. قال رسول الله ﷺ مايحملك على قولك بخ بخ. قال: لا والله يارسول الله إلاّ رجاء أن أكون من أهلها، قال ﷺ: فإنّك من أهلها. فأخرج تمرات من قَرَنِه فجعل يأكل منهنّ ثمّ قال: لئن أنا حَييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثمّ قاتلهم حتّى قُتل.[1] وهكذا غاص ذلك الصحابي المجاهد في ساحة

---

(١) الإمام مسلم، الصحيح، كتاب الأمارة، حديث رقم (١٩٠١) ورواه أبو داود، السنن، كتاب الجهاد، حديث رقم (٢٦١٨)؛ وكذلك الإمام أحمد، المسند، باقي مسند المكثرين،حديث رقم (١١٩٩٠)

الوغى بين أمواج من السيوف والرماح، معتقداً بما بشّر به المصطفى ﷺ، مندفعاً بصدق اعتقاده ليقاتل أئمّة الكفر، وليَنال كرم الشهادة.

وكيف نفسّر تلك الدافعيّة التي حركت من يرغب في الجهاد مع رسول الله ﷺ، ويطلبون من رسول الله ﷺ أن يسمح لهم، فلا يجد مايحملهم عليه، فيتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً. قال تعالى في معرض الثناء عليهم: **(ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه، تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً أن لايجدوا مايُنفقون)** [التوبة:٩٢]

إنّها العقيدة الإسلامية التي أوقدت شعلة الإيمان في قلب العبد، ليشرق بقبس من نور الله، فيستحيل منارة في الأرض ليستقبل نور السماء، فيُصبح العبد رهينة مراد معبوده، والمحبّ أسير رغبة محبوبه، والنّفس الغالية رخيصة عندما تفتي لأجل نصرة الحقّ، وعلوّ كلمته.

لذا ينبغي أن لايحول شيء - مهما ارتقى في سلّم المغريات الدنيويّة - دون الأداء الأمثل الذي ينسجم مع الإيمان الصادق، ليحقق العبد من خلاله مصداقيّة العبوديّة الحقّة للباري عزّ وجل، وليتميّز مفترق الطريق بين ماكان لله، وبين ماهو لسواه، أيّاً كان ذلك، ولا يحقّ في النّهاية إلاّ الحقّ. **(والله غالب على أمره ولكنّ أكثر النّاس لايعلمون)**. [يوسف:٢١]

نظرة في خلاف الفقهاء

إنّنا أمام مدرسة فكرية ضخمة، جذورها عريقة وأصيلة، صالحة لأن تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها، فليس لأحدنا الحقّ في أن يقتل روح الإبداع فيمن أراد العيش في ظلالها، بسبب تعصب لاضرورة له، أو يناصب علماء الفكر وقادة الرأي العداء، بسبب ضيق الأفق، وفقدان الموضوعية.

علينا أن ندرك حقيقة مفادها **«أنّ اختلاف المختلفين في الحقّ لايعني اختلاف الحقّ في نفسه»**[1] فإنّ الحق واحد وإن اختلفت الطرق الموصلة إليه وكثرت الاجتهادات من حوله وتعددت الآراء، لا كما يفهم بعض الناس أنّ اختلاف الفقهاء في مسائل الاجتهاد، يعني تباين أوجه الحق وتغايرها، بل إنّ أوجه الحق وإن تعددت عند العلماء تبقى داخل حدوده. وهذا من رحمة الله بنا أن أكرمنا بشريعته السمحاء، التي وسعت ضعفاء المؤمنين، كما وسعت أهل العزائم. وعالجت أهل الرخص والأعذار.

فمع أنّ الحقّ واحد لايتعدد خصوصاً في جوانب الاعتقاد

(١) ابن السيد البطليوسي، الانصاف ص١٩

(فذلكم الله ربّكم الحقّ، فماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال، فأنّى تُصرفون) [يونس: ٣٢] لكن لايمنع أن تتعدد أوجه الحقّ الواحد في مسائل الفقه، ودلالات النّصوص، فيكون الحقّ بمثابة الشجرة الصالحة التي مهما تعددت غصونها ، وتناثرت ثمارها، يبقى أصلها ثابت (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها ،ويضرب الله الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون) [ابراهيم: ٢٤ ، ٢٥]

وإنّه لمن المؤسف أن يتردد على أسماعنا صيحات بعض أهل العلم وهم يطالبون بنسخ المذاهب والاجتهادات ، والوقوف إلى جانب النص الشرعي، ظنّا منهم أنّ في الأمر قولاً بالهوى، وتجاوزاً لقدسية نصوص الشريعة، وتلاعباً بمعانيها، وإسهاباً في بيان مراداتها ومدلولاتها.

ويبدو أنّ هذا الاتجاه لم يكن أحدوثة عصرنا، وإنّما ظهر منذ زمن بعيد، فعن أبي بكر بن الجد [أحد علماء الأندلس]، قال: «لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي: يا أبا بكر، انظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من

هذا، فأي هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فاقتصحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داوود وكان عن يمينه أو السيف»[1].

ولعلّ بعض العلماء الأجلاء قديماً استعجل الحكم على من تصدّر وجهة الاجتهاد والقياس، إلاّ أنّه عدل عن ذلك لمّا بانت له حقيقة الأمر. يروى أنّ الأوزاعي فقيه الشام الذي كان معاصرا لإمام أبي حنيفة، قال لعبد الله بن المبارك: «من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة، ويكنّى أبا حنيفة ؟ فلم يجبه عبد الله بن المبارك، بل أخذ يذكر مسائل عويصة، وطرق فهمها والفتوى فيها، فقال: من صاحب هذا الفتاوى؟ فقال: شيخ لقيته بالعراق، فقال الاوزاعي: هذا نبيل من المشايخ، اذهب فاستكثر منه، قال هذا أبو حنيفة. ثمّ اجتمع الاوزاعي وأبو حنيفة بمكة، فتذاكرا المسائل التي ذكرها ابن المبارك، فكشفها، فلمّا افترقا قال الاوزاعي لابن المبارك: غبطت الرجل بكثرة علمه، ووفور عقله، وأستغفر الله تعالى، لقد كنت في غلط ظاهر، الزم الرجل فإنّه بخلاف مابلغني عنه.[2]

---

(١) المراكشي، المعجب، ص ٤٠١، ٤٠٢

(٢) الخيرات الحسان، ص٢٣

لقد أدرك المنصفون من علماء الأمّة أمثال الإمام ابن تيمية خطر النيل من حرمة العلماء، وتحاشي الحكم الجائر عليهم، فألف كتابا أسماه [**رفع الملام عن الأئمّة الاعلام**] ذكر فيه قوله: «ليس أحد من الأئمّة المقبولين عند الأمّة قبولا عامّا يُعتقد مخالفته رسول الله ﷺ في شيء من سنّته دقيق ولا جليل». وكتب العالم الأندلسي ابن السيّد البطليوسي[1] كتابا أسماه: [**الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم**][2] التزم في معظمه الانصاف في سرده الأسباب التي أوجبت الخلاف بين العلماء. وذكر أنّ خلاف العلماء ينحصر في سببين أساسيين، وجميع أسباب الخلاف الاخرى تنطوي تحتهما، وهذان السببان هما:

١- الخلاف في ثبوت النص، وهذا خاص بالحديث والرواية

٢- الخلاف في فهم النص بحسب قواعد اللغة العربية وأوضاعها المعروفة، وهذا يشمل القرآن والحديث معا.[3]

---

(١) الامام النحوي اللغوي، أبو محمد بن عبد الله بن محمد، من علماء الاندلس، ولد سنة ٤٤٤هـ، وتوفي سنة ٥٢١هـ، في عهد الامير علي بن يوسف بن تاشفين (أنظر ترجمته في: ابن بشكوال، الصلة ١/ ٢٨٢؛ وابن خلكان، وفيات الاعيان ٢/ ٢٨٢؛ وابن كثير، البداية والنهاية ١٢/ ١٩٨؛ والمقري، نفح الطيب ٢/ ١٦٧)

(٢) تحقيق: محمد رضوان الداية، طبعة دار الفكر، ط١ لسنة ١٩٧٤م

(٣) أنظر: مقدمة كتاب الانصاف ص١٠

ومع أنّ الإمام السيوطي كان شافعي المذهب إلاّ انّه لم ينتقص من قدر المذاهب الإسلاميّة الأخرى، حتّى انّه ألّف رسالة في أبي حنيفة أسماها: «**تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة**»، وكذلك الإمام ابن حجر الهيتمي المكي، الشافعي المذهب، كتب رسالة في مناقب الإمام أبي حنيفة أسماها «**الخيرات الحسان في مناقب الامام الاعظم أبي حنيفة النعمان**»

ففي نظرتنا الموضوعيّة لخلاف الفقهاء ينبغي مراعاة أنّ «هناك طرائق ومسالك عديدة يختلف في تقديرها وفي الأخذ بها فقهاء الشريعة ما بين قابل ورافض ومطلق ومقيد ومقل ومكثر، هناك القياس بقيوده وشروطه وإن خالف فيه بعض المعتزلة والظاهرية والإمامية، هناك الاستحسان الذي أخذ به الحنفية والمالكية وجاء عن بعضهم: إنه تسعة أعشار العلم، هناك الاستصلاح أو إعتبار المصلحة المرسلة وهي التي لم يجيء نص خاص من الشارع باعتبارها ولا بالغائها، واشتهر الأخذ بها عند المالكية وإن كانت المذاهب الأربعة كلها قد أخذت بها عند التحقيق والتطبيق كما يتضح ذلك بالقراءة والاستقراء لكل مذهب. هناك اعتبار العرف بقيوده وشروطه ولهذا كان من القواعد الكلية الشرعية، أن العادة محكّمة. وهناك مصادر وأدلة أخرى لاستنباط الحكم الشرعي فيما لا نص فيه»[1]

---

(١) يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام ص٢٤٣

«فالفقيه المسلم مقيد حقا بالنصوص المحكمة الثابتة من القرآن والسنة وهي المجزوم بثبوتها، القاطعة في دلالتها وهذا النوع من النصوص قليل جداً بالنسبة إلى سائر النصوص، ومع هذا التقييد الملزم يجد الفقيه المسلم نفسه في حرية واسعة أمام منطقتين فسيحتين من مناطق الاجتهاد وإعمال الرأي والنظر، أما المنطقة الأولى فهي ما يمكن تسميته «منطقة الفراغ التشريعي» تلك المنطقة التي تركتها النصوص -قصدا- لاجتهاد أولي الأمر والرأي وأهل الحل والعقد في الأمة، بما يحقق المصلحة العامة ويرعى المقاصد الشرعية، وهي المنطقة التي يسميها بعض الفقهاء «العفو» تبعاً لما جاء في بعض الأحاديث **«ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئاً. وتلا (وما كان ربك نسيا)**[1] [مريم:٦٤] ... والثانية: منطقة النصوص المتشابهات التي اقتضت حكمة الشارع أن تجعلها هكذا محتملات تسع لأكثر من فهم وأكثر من رأي ما بين موسّع ومضيّق وما بين قياسي وظاهري ما بين متشدد ومرخص وما بين واقعي ومفترض وفي كل هذا فسحة لمن أراد الموازنة

(١) الحديث رواه الترمذي بلفظ: «الحلال ما أحلّ الله في كتابه، والحرام ما حرّم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه» (الترمذي، السنن، كتاب اللباس، حديث رقم (١٧٢٦)).

لترجيح وأخذ اقرب الآراء إلى الصواب وأولاها بتحقيق مقاصد الشرع «فقد يصلح رأي لزمن ولا يصلح لآخر أو يصلح لبيئة ولا يصلح لأخرى أو يصلح لحال ولا يصلح لغيره»[1].

وهكذا «شاء الله أن يكون من مصادر هذا الدين وأدلته القطعي اليقينيّ الذي لا يقبل النقاش ولا التغيير ولا يحتمل أكثر من وجه ولا يسع مسلم أن يهمله أو يعرض عنه، كما شاء سبحانه أن يكون بجوارها المصادر الاجتهادية والأدلة الظنية، ليتسع المجال للنظر والترجيح وتتعدد مآخذ الاجتهاد، وطرائق الاستنباط ومدارس الفكر، وفي ذلك كله نجد متسعاً أي متسع للتطور المحمود بفضل هذه المرونة العجيبة التي تضمنتها مصادر الشريعة»[2].

(١) يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام ص٢٤١.

(٢) يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام ص٢٤٦.

النزعة الإنتمائيّة

قال تعالى: **(يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط، ولايجرمنّكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون)** [المائدة: ٨]

لقد أصبح الاختلاف المتباين في النظرة إلى التراث بين مثقفي الأمّة، لايتناسب -في كثير من الأحيان- مع حجم الأسباب الداعية إليه. حيث أثرت النّزعة الإنتمائيّة نحو مناهج علمائنا القدامى، ونحو مدارسهم المذهبيّة والفكريّة، في وجهة مقلديهم، الذين حاولوا أن يتصدّروا واجهة الفكر التربوي المعاصر، ويشغلوا ساحته، في الوقت الذي غابت فيه عن الأذهان حقيقة مفادها: **«أنّ أسباب خلافهم لا تستلزم أن تكون نفسها أسباب اختلافنا»** إذ إنّ عامل التقوى ومخافة الله كان - مع وجود الخلاف عند علمائنا القدامى- فاعلا ومؤثّرا في حياتهم وتعاملاتهم. كما أنّ حرصهم على وحدة الصف، وتماسك أجزائه كان شديدا، ممّا ألبسهم ثوب الموضوعية والتجرد، وصدق اللهجة مع مخالفيهم.

وهذه النزعة وسّعت دائرة التعصب، فتعدّى الأمر إلى النيل من علماء الأمّة، الذين أسدوا لنا ذلك العطاء الهائل، حتّى تحامل بعض النّاس على شيخ الاسلام ابن تيمية[1] (ت:٧٢٨هـ)، وبسبب طيشهم في الحكم عليه، حرّموا على أنفسهم التعامل مع كلّ مايتصل به، أو يوصل إليه. فكم كان حجم الخسارة الفكرية والتربوية التي مني بها هؤلاء! كم نحن بحاجة ماسّة في زماننا إلى تركة الامام الجليل ابن تيمية؟ أما كان بامكاننا أن نستفيد مثلا من كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» لرسم معالم وأبعاد الشخصيّة الاسلامية الثابتة أمام الانحراف والذوبان والانحلال. وبنفس المستوى، أو أكبر من ذلك، تحصل لنا الاستفادة من بقية تراثه الهائل المتنوّع.

وتحامل آخرون على **الامام الغزالي**[2]، وطعنوا في

---

(١) الإمام الجليل شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميّة الحراني، العالم الصابر المحتسب المجاهد في سبيل الله، الآمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر، ناصر السنّة وقامع البدعة ومفتي الأمّة، أفتى وله من العمر (١٩ سنة)، زادت مؤلفاته عن (٣٠٠ مجلد)، وكانت وفاته في قلعة دمشق سنة (٧٢٨ هـ). (ابن كثير، البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٧١، وداثرة المعارف الإسلامية ٩/ ١٠٩، والزركلي، الأعلام ١/ ١٤٤)

(٢) هو محمّد بن محمّد بن محمّد الغزالي الطوسي، أبو حامد، صاحب المصنّفات الكثيرة، حيث بلغت نحو مئتي مصنّف، توفي في قصبة طوس بخراسان سنة (٥٠٥ هـ) (ابن خلكان، وفيات الأعيان ١/ ٤٦٣؛ وطبقات الشافعيّة ٤/ ١٠١؛ والزركلي، الأعلام ٧/ ٢٢)

مؤلفاته، وقادوا في الانتقاص من كتابه «إحياء علوم الدين»، فلو كانت الموضوعيّة تحكم حياتنا الفكرية لما وقع العلماء الأجلاّء ضحية جهلنا وظلمنا. لقد كان بإمكاننا أن نستفيد من كتاب إحياء علوم الدين، بعد التخلي عن الروايات الضعيفة، وعن الآراء التي يبدو فيها الخلل العقائدي. ولا ضرر في أن يُشار إلى ذلك بمنهجيّة تُلبسنا ثوب الموضوعية، من غير قدح أو تجريح، على أن لا نتناسى كم في الإحياء من القيم والمعاني التربوية المشرقة، التي نحتاجها في بناء الشخصيّة الاسلامية، وتحسين سلوكها التربوي، وتقويم طريق عبادتها.

يلزمنا حسن الأدب مع علمائنا الأجلاّء، فنحمل حصيلة عطائهم محملاً حسنا، لنكون خير خلف لخير سلف، فلا نُحرم بركة الخطاب الرّباني، إذ يوجّه الباري عزّ وجلّ فيه العلاقة بين اللاحق والسابق ضمن إطارها الإيماني الصادق، فيقول: ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربّنا إنّك رؤوف رحيم**﴾ [الحشر: ١٠]

بين الاتّباع والابتداع

قبل أن نشرع في تصنيف الأمّة إلى متبعين ومبتدعين، ينبغي أن نصل إلى تصور شامل لمفهوم الاتباع والابتداع، وبيان حدودهما، لتحقيق شموليّة النظرة، وسلامة المنهج.

مفهوم الاتباع

الاتباع في اللغة، يُقال: تبع الشيء تبعاً وتباعاً في الأفعال، وتبعْت الشيء تبوعاً: سرت في إثْره واتبعه وأتبعه وتتبّعه قفاه وتطلبه وسار وراءه متبعاً له[1]. واتبع الإمام: أي حذا حذوه: واتّبع القرآن والحديث، أي: عمل بما فيهما[2].

وفي الاصطلاح يعني: العمل الصحيح بما جاء في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وفق مرادهما. وقد يكون في القول وقد يكون بالفعل. فاتباع القول هو امتثاله على الوجه الذي اقتضاه القول، والاتباع في الفعل هو التأسي بعينه[3].

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٨/٢٧ (مادة تبع)

(٢) المعجم الوسيط: ١/٨١ (مادة تبع)

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان ص٨٧ (ط٨)؛ وعلي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام ص٢٤٥ (ط١).

مفهوم الابتداع

معناه في اللغة: من بدع الشيء، أي: يبدعه بدعاً، وابتداعه: أنشأه وبدأه على غير مثال سابق، وابتدع: أي أتى ببدعة، والبدعة ما استحدث في الدين وغيره. والبدع: الشيء الذي يكون أولاً: وفي التنزيل: **(قل ما كنت بدعاً من الرسل)** [الأحقاف:٩] أي ما كنت أول من أرسل فقد أرسل قبلي كثير.

والبدعة: الحدث، وما ابتدع في الدين بعد الإكمال، وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفاً في الذم[١].

وفي الاصطلاح يعني: إحداث أمر لا أصل له في الدين يدلّ عليه، ودلّ على ذلك حديث النّبي ﷺ حيث يقول: **«من أحدث في أمرنا هذا ماليس فيه فهو ردّ»**[٢]

أمّا ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعاً وإن كان بدعة لغة[٣]». وحديث رسول الله ﷺ **«كل محدثة**

---

(١) أنظر: المعجم الوسيط ٤٧/١ (مادة بدع) : وابن منظور، لسان العرب، ٥/٨ (مادة بدع).

(٢) البخاري، الصحيح، كتاب الصلح، حديث رقم (٢٦٩٧) : ومسلم، الصحيح، كتاب الأقضية، حديث (١٧١٨)؛ وأبو داود، السنن، كتاب السنّة، حديث (٤٦٠٦)؛ وابن ماجة، السنن، كتاب المقدمة، حديث (١٤)؛ وأحمد، المسند، باقي مسند الأنصار، حديث (٢٥٧٩٧).

(٣) انظر، ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم ص٢٨٩ . ٤٩٤ : وابن حجر، فتح الباري، ص١٧٩

بدعة»، إنما يريد ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة[1]. وفي الغالب يُستخدم مصطلح البدعة في موطن الذم.

وذهب بعض العلماء إلى التفصيل في أنواع البدعة، منها ماهو محمود، وهو الذي وافق السنّة، ومنها ماهو مذموم، وهو الذي خالف الكتاب والسنّة.[2] ويتوسّع الإمام العزّ بن عبد السلام في ذكر أنواعها فيقول: «البدعة فعل ما لم يُعهد في عصر رسول الله ﷺ وهي منقسمة إلى: بدعة واجبة، وبدعة محرّمة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة. والطريق إلى معرفة ذلك أن تعرض البدعة على قواعد الشريعة، فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة، وإن دخلت في قواعد التحريم فهي محرمة، وإن دخلت في قواعد المندوب فهي مندوبة، وإن دخلت في قواعد المباح فهي مباحة»[3].

ويبدوا أنّ إتيان ماهو جديد في الدين تحفّه كثير من المخاطر، خصوصاً في ضوء اخبار النّبي ﷺ في الحديث الذي يرويه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه حيث يقول: **كنّا عند النبي ﷺ فخطّ خطاً، وخطّ خطين عن يمينه، وخطّ خطين عن يساره، ثمّ وضع يده في الخطّ الأوسط فقال: هذا سبيل الله**

---

(١) أنظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ص١٠٧

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري ص١٧٩.

(٣) انظر: العز بن عبد السلام، الأحكام في مصالح الأنام ص١٧٢.

ثمّ تلا هذه الآية: (وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه، ولا تتبعوا السُّبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون)[1] [الأنعام: ١٥٣] وفي رواية: « فخطّ خطاً هكذا أمامه فقال: هذا سبيل الله عزّ وجلّ، وخطّ خطّين عن يمينه وخطّين عن شماله، قال: هذا سبيل الشيطان... »[2]

وفي ضوء ماسبق يمكن جعل سلامة الفهم لمسائل الاتباع والابتداع وحدة قياس للحكم لمعتقدات النّاس وواقع أفعالهم، لأجل الأخذ أو الردّ، على أن يكون هذا الفهم ظلالاً للحكم، وليس قالبا له، وأن تكون خطاناً للاعتذار أسرع منها للتكفير، وللتبرير أقرب منها للتبديع. فليس كلّ جديد بدعة، ولا كلّ قديم سنّة، وليس في ظاهر كلّ أمر وافق السنّة اتباع، ولا في ظاهر كلّ أمر خالفها ابتداع. ينبغي التفريق بين نوع النيّات والمقاصد التي تتقدّم أفعال العباد، فإن كانت الحدود تُدرأ بالشبهات فلا غضاضة من أن تدرأ الأحكام على النّاس بما يُمكن أن تُتلمس فيه الأعذار لتُبرىء ساحتهم عن الانتقاص والتنكيل، وصدّ النّاس عنهم.

---

(١) ابن ماجة، السنن، كتاب المقدمة، حديث رقم (١١)، والحاكم، المستدرك، ٢/٢٣٩، وقال عنه: حديث صحيح.

(٢) أحمد، المسند، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم (١٤٨٥٣)، وانظر: الدارمي، السنن، كتاب المقدمة، حديث رقم (٢٠٢).

لسنا حكّماً على علماء الأمّة الأجلاء، لكن لاينبغي الحكم عليهم إن كان في الأمر ضرورة دينيّة، شريطة توافر الأهليّة في الحكم واكتمال شروطه. على أن تتسع صدورنا لجمل عطائهم، وأن لا تدفعنا ظاهر تفسيرات النّصوص إلى تبديع أصحابها، بل ينبغي الانبساط مع مدلولاتها المحتملة بغية الحيد عن الأحكام الظاهرة التي قد يقع فيها الجور والظلم.

إنّ من عدالة التعامل مع عطاء العلماء أن لانحمّلهم ظاهر الألفاظ، قبل التأكّد من مقاصدهم فيها، واتّضاح مدلولاتها التي عنوها. فكم نحن بحاجة إلى قولة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، لتلك المرأة التي خانها اللفظ في التعبير عن شعورها الصادق، فبدل أن تدعو له بالشفاء من مرضه، دعت عليه، فقال: « اللهمّ بقلبها لابلسانها » !! أي تقبّل منها الدعاء الذي قصدته بقلبها، لا مانطق به لسانها.

إنّ النّبي ﷺ لم يكتف في سماع الصحابي الجليل حارثة عن تصوّر إيمانه واعتقاده، عندما سأله : **«كيف أصبحت يا حارثة؟** قال: أصبحت مؤمناً حقا. بل زاد في التأكّد والتيقن، فقال له: **أنظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك؟** قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري وسهرت ليلي، وكأني انظر عرش ربي بارزاً وكأني انظر إلى أهل الجنة يتزاورون

فيها وإلى أهل النار يتضاغون فيها، قال: يا حارثة عرفت فالزم».[1]

ومن هنا فلا يسعنا التعجّل بالحكم على ظاهر ملابسات التراث من غير تدبّر، وسلامة قصد، إذ ليس القصد تصيّد الأخطاء، وإنّما التماس الأعذار لأصحابها إن كان في أمر الشارع متّسع، ومن ثمّ تجاوزها ما أمكن لأنّ المؤمن لايصطاد في الماء العكر، فـ «كلّ ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون»[2] كما أخبر النّبيّ ﷺ.

يقول الإمام ابن تيميّة: «إن القول قد يكون كفراً فيطلق بتكفير صاحبه فيقال: من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعيّن الذي قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهذا كما في نصوص الوعيد فإن الله سبحانه وتعالى يقول: **(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً)** [النساء: ١٠]. فهذا ونحوه من نصوص الوعيد

---

(١) أخرجه الهيثمي في جمع الزوائد ١/٥٧، باب في حقيقة الإيمان وكماله. وقال ابن رجب الحديث مشهور وقد روي من وجوه مرسلة وروى متصلاً والمرسل أصح. (انظر: جامع العلوم والحكم ص٤٣).

(٢) الترمذي، السنن، كتاب صفة القيامة، حديث رقم (٢٤٩٩)؛ وابن ماجة، السنن، كتاب الزّهد، حديث رقم (٤٢٥١)؛ وأحمد، المسند، كتاب باقي مسند المكثرين، حديث رقم (١٢٦٣٧)؛ والدارمي، السنن، كتاب الرقائق، حديث رقم (٢٧٢٧).

حق، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار بجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرط، أو ثبوت مانع: فقد لا يكون التحريم بَلَغَه، وقد يتوب من فعل المحرم، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو ذلك المحرم، وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه، وقد يشفع فيه شفيع مطاع وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها. قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون بَلَغَتْه ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون عرضت له شبهات يعذره الله تعالى بها»[1].

كم نحن بحاجة ماسّة إلى منهج هذا الإمام الجليل لنتجاوز الإسراف في إصدار الأحكام على النّاس، ونتوقّف عن إدخالهم النّار قبل يوم الفصل والحساب. قال عليه الصلاة والسلام: «**إنّ الفقيه حقّ الفقيه من لم يُقنّط النّاس من رحمة الله**»[2]. وكم هو عظيم هذا المنهج الذي يتّسع لأن نُعيد جمهرة كبيرة من العلماء الأجلاء إلى دائرة الانتماء لجماعة الأمّة المسلمة، في الوقت الذي أُخرجوا منها بسبب رمية طائشة من متسرّع هوى الغواية في الأحكام فلحن في حقّ الأنام.

---

(١) انظر: ابن تيمية، فقه الكتاب والسنة ورفع الحرج عن الأمة ص١٢.

(٢) الدارمي، السنن، كتاب المقدمة، حديث رقم (٢٩٧)

الفهم الدقيق لنصوص التراث

إنّ الفهم الدقيق لنصوص التراث الإسلامي يُساعد على تكوين منهجيّة علميّة ننطلق من خلالها نحو محصّلات حضارية فاعلة تحول دون التشتت الفكري، ودون فقدان المناعة الحضاريّة التي عزّزها الفكر التربوي الإسلامي على مرّ العصور. فبسبب غياب الفهم الدقيق لمقاصد الشريعة، تبددت جهود الأمّة، وهُدرت طاقاتها. لذا فإنّ الحاجة شديدة إلى فقه عميق متوازن، يُحاط بشموليّة عناصر هذا الدين، لنتوسّط من خلاله بين الأخذ والأداء، بغية الحيلولة دون حدوث خلل في التعامل.

لم تكن الأزمة الحضاريّة التي نعيشها، سببها معطيات الفكر التربوي الاسلامي، بل انحسارٌ في فقه نصوص التراث، ذلك أنّ العلم بالشيء وفقه دلالته شرط لسلامة الأداء **(فاعلم أنّه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك)** [محمد: ١٩]. وفهم الأمر والبصيرة فيه من ثوابت حسن العمل **(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين)** [يوسف: ١٠٨] وهذا هو السبيل الفاعل الذي رسمه لنا الباري سبحانه وتعالى.

لقد حثّ الاسلام على عمق الفقه، قال تعالى: ﴿انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون﴾ [الأنعام: ٦٥] ، ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ [الأنعام: ٩٨]، حيث تتعثر الخطى في الأداء قبل التفقه، فليس كلّ من قرأ فهم، ولا كلّ من فهم أفتى، ولا كلّ من أفتى مفتي. يقول ابن القيم : «ولا يتمكن المفتي والحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم، أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علم، والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع ، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك، لم يعدم أجرين أو أجرا »[1] ويقول الامام النووي: «من رأى المسألة في عشرة كتب مثلا، لايجوز له الافتاء بها لاحتمال أنّ تلك الكتب كلّها ماشية على قول أو طريق ضعيف »[2] لذلك ينبغي أن يتصدّر الفتوى من هو أهل لها، يقول الإمام مالك: «ماأفتيت حتّى شهد لي سبعون أنّي أهل لذلك »[3] ومن هنا بات من الضروري ان يتوفّر لدينا علماء أجلاّء يتّسمون بالأمور التالية:

---

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٨٧-٨٨

(٢) الهيتمي، ابن حجر ، الفتاوى الحديثية ص٢٠

(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ١/٢٠٨

١- القدرة على الفقه الدقيق للنّص الشرعي، وشموليّة دلالاته المتنوعة.

٢- تصوّر صحيح لأسباب النزول، أو أسباب الحكم، ليكون بالإمكان دراسة الحكم الشرعي داخل محيطه، وضمن حالته، لإيجاد عناصر التقاطع والتشابه بين تلك الحالة التي نشأ من خلالها الحكم، وبين جميع الحالات المشابهة له.

٣- موضوعيّة النّظرة الفقهيّة، وصحّة التصوّر، ليتمكن الفقيه من شموليّة الحكم، ممّا يجعل منظومة الأحكام تتسع على المكلفين ليتمكنوا من حسن الانتقاء والاختيار.

٤- الدراية بالمحيط المعايش، وفقه الواقع، والمعرفة الدقيقة بأحوال النّاس، ليتمكن الفقيه من الوصول إلى مصداقيّة الأحكام الشرعيّة المناسبة.

٥- القدرة على الموازنة بين حاجة التجديد، ومقتضى التأصيل.

ولأهميّة سلامة الفهم لدلالات النّصوص أفرد الإمام البخاري باباً أسماه «باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يَقْصُر فَهْمُ بعض النّاس عنه فيقعوا في أشدّ منه»[1] وفي باب «كتابة العلم» أورد عن أبي جُحيفة قوله: قلت لعليّ بن أبي طالب: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلاّ كتاب الله أو فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رجل

(١) البخاري، الصحيح، كتاب العلم.

مسلم..»[1] وقال ﷺ: «ولا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فهم فيه، ولا قراءة لا تدبّر فيها»[2]

ويؤكّد الإمام عليّ (رضي الله عنه) على أهميّة الوعي وفقه الخطاب، وذلك في وصيته للتابعي كُميل بن زياد النخعي اليمني (ت: ٨٢هـ) قال فيها: «يا كميل بن زياد، إن هذه القلوب أوعية، خيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجوا إلى ركن وثيق ...»[3]

وعندما سُئل الامام مالك (ت: ١٧٩ هـ) عن طلب العلم أهو فريضة (أي فرض عين) على الناس؟ قال: «لا ولكن يطلب من المرء مايتفع في دينه»،[4] فمن يرد الله به خيراً يفقّه في الدين، كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بذلك.[5]

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب العلم، حديث رقم (١١١)؛ وأحمد بلفظ مقارب، المسند، كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنّة، رقم (٦٠٠).

(٢) الدارمي، السنن، كتاب المقدمة، حديث رقم (٢٩٧).

(٣) الأصبهاني، حلية الأولياء ٨/ ٨٩ . ٨٠؛ والمزي، تهذيب الكمال ٢٤/ ٢٢٠ . ٢٢٩؛ والخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه ١/ ٥٠؛ والغزالي: احياء علوم الدين ١/ ٧

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ص ٩ . ١٠

(٥) صحيح البخاري، كتاب العلم، حديث رقم (٧١)؛ وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، رقم الحديث (١٠٣٧)؛ وسنن الترمذي، كتاب العلم، حديث رقم (٢٦٤٥)؛ وسنن ابن ماجة، المقدمة، رقم الحديث (٢٢٠)

ولأجل تحقيق كمال الطاعة والأداء الشرعي، يوجّه الامام ابن تيمية (ت :٧٢٨هـ) المتعلّم لأن «تكون همّته فهم مقاصد الرسول ﷺ في أمره ونهيه وسائر كلامه. فإذا اطمأنّ قلب المتعلّم أنّ هذا الأمر هو مراد الرسول ﷺ فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى، ولا مع النّاس إذا أمكنه ذلك».[1]

إنّ العبادة في الإسلام تُمثّل محور الهدف من الوجود الإنساني، قال تعالى: **(وما خلقت الجنّ والانس إلاّ ليعبدون) [الذاريات:٥٦]**. وفهم أحكام الدين يمثل الطريق القويم لتحقيق العبوديّة الحقّة لله، فلابدّ أن تتسع دائرة الفقه لتشمل فقه نصوص الشريعة وفقه الواقع المعايش الذي يُراد لأحكامها أن تكون فاعلة فيه. وفي ضوء ذلك يلزمنا الاعتقاد بوجود ثوابت ومتغيّرات في كلّ عصر، وعند كلّ جيل، وبحاجة أمّتنا إلى الاجتهاد والتجديد في كلّ زمان ومكان، فالمتغيرات لاتنتهي، على أن تبقى نصوص الوحي الإلهي تمثّل الثوابت في منهج الفكر الإسلامي، أمّا الاجتهاد والنّظر والقياس واستنباط الدلالات، فإنّها تدخل في دائرة المتغيّرات، لتبقى القدسيّة للثوابت وليس للمتغيّرات، ولا يمنع أن يطرأ على الثانية مايطرأ، شريطة أن تبقى الثوابت أسس حماية للمتغيرات، تمنع عنها الزيغ والتحريف والتضليل.

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى ١٠/٦٦٤.

مظاهر التطرف

كثيرا ما يبدو الخلل في تصورات النّاس وأحكامهم وممارساتهم، بسبب الخطأ في الفهم أو الأداء، فتكون نتائج أخطائهم أبلغ بكثير من المصالح التي قصدوها، وهدفوا إلى تحقيقها، فلا يُعذر المرء إذا أخلص النيّة وأساء العمل، أو أحسن العمل وأساء النيّة، لذا يُشترط في العبادة الحقّة "الإخلاص" و"الصواب"، كما جاء في تفسير العالم الجليل الفضيل بن عياض (ت: ١٨٧هـ) لحُسْن العمل الذي ورد في قول الله تبارك وتعالى: **(ليبلوكم أيكم أحسن عملا)** [الملك: ٢]، قال: «أخلصه وأصوبه، فإنّ العمل إذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يُقبل حتى يكون خالصا وصوابا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنّة».(١)

ويبدو أنّ ملامح التطرف قد برزت جليّة في توجهات النّاس وفكرهم وأفعالهم، سواء قصدوا ذلك، أم أنّ هذا المظهر جاء عفويّاً دون قصد، وفي كلا الأمرين لاتكون نتائجه محمودة.

---

(١) ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص٢٧؛ وابن كثير، البداية والنهاية ١٠/١٩٩.

ومن بين مظاهر التطرّف:

١- تحميل النّصوص الشرعيّة دلالات لاتتناسب مع حجم مضامينها، فتبعد بالأحكام خارج دائرة التشريع.

٢- الجرأة على الخوض في أعقد المسائل الفقهيّة دون حرج، لدرجة أنّ بعض النّاس يُجيز لنفسه الاجتهاد المطلق، في الوقت الذي يرفضه وإن كان عند الأئمّة الأربعة.

٣- أن يكتفي المرء في حكمه بنص واحد دون محاولة النظر في النصوص الشرعية مجتمعة، مثل نصوص الوعد والوعيد.

٤- محاولة حمل النّاس جميعا على الأخذ بالعزائم دون الاكتراث بموجبات الرخص، وقد يلجأ بعضهم إلى اتهام من رخّص للناس في بعض المسائل التي يتّسع لها التشريع، بأنّه متساهل في الدين، متهاون بأحكام الله تعالى. وفي بعض الأحيان تكون محاسبتهم النّاسَ على النوافل أشدّ من محاسبتهم على الفرائض.

٥- الميل إلى التعسير على الناس دون الأخذ بما يسّر الله على عباده من الأحكام، مع أنّ النصوص الشرعية تتسع لذلك، قال تعالى: **(يريد اللّهُ بكم اليُسر ولا يريد بكم العُسر)** [البقرة: ١٨٥] وعن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رجل: يارسول الله

لا أكاد أدرك[1] الصلاة مما يُطوِّل بنا فلان، فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشدَّ غضباً من يومئذ، فقال: «أيها الناس إنكم مُنفِّرون، فمن صلى بالناس فليُخفِّف، فإنَّ فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة»[2].

٦- التكلف في العبادات، والغلو في الدين، الأمر الذي نهى عنه الشارع، قال ﷺ: «وإيّاكم والغلو في الدين» وسبب هذه المقولة أنه لما وصل رسول الله ﷺ إلى المزدلفة في حجة الوداع قال لابن عباس (رضي الله عنهما): «هات هلمّ القط لي [أي حصيات ليرمي بها الجمرات في منى] قال: فلقطت له حصيات هنّ حصى الخذف[3]، فلمّا وضعتهن في يده قال: بأمثال هؤلاء، وإيّاكم والغلو [التشدد] في الدين فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلوّ في الدين»[4].

---

(١) في رواية الدارمي: «فقال يارسول الله، والله إني لأتأخر عن صلاة الغداة مما يُطيل بنا فيها فلان ...» (أنظر: الدارمي، السنن، كتاب الصلاة، حديث رقم (١٢٥٩).

(٢) البخاري، الصحيح، كتاب العلم، حديث (٩٠)، وكتاب الأذان، حديث رقم (٦٧٠)؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الصلاة، حديث رقم (٤٦٦)

(٣) الخذف: الحصى الصغيرة بحجم حبّ الباقلاء.

(٤) النسائي، السنن، كتاب مناسك الحج، حديث رقم (٣٠٥٧)؛ وابن ماجة، السنن، كتاب المناسك، حديث رقم (٣٠٢٩)؛ وأحمد، المسند، كتاب مسند بني هاشم، حديث رقم (١٨٥٤).

وعن عبد الله ابن مسعود (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: **«هلك المتنطعون»**[1] **قالها ثلاثا**. فلابدّ من تجنّب الانحراف بسبب التطرف والمغالاة في منهج التعامل، أو بسبب النظرة المتطرفة نحو قضايا التراث.

٧- حبّ المخالفة دون الشعور بآثار فرديّة الرأي والاجتهاد، الذي عانت منه الأمّة الإسلاميّة في ظلّ غياب النظرة الجماعية، أو توافق الآراء التي كان حصيلتها مايُسمّى "برأي الجمهور"، الأمر الذي أضعفت ثقة النّاس بمعطيات تراثنا الإسلامي. فمع توسّع العلوم، وتباين التخصصات، والتعقيد في تركيبة المجتمعات، وتنوع مشاكل العصر، أصبح من الصعب على الفرد أن يتصدّر دائرة الاجتهاد لمجرّد أنّه يحفظ شيئا من نصوص التراث، أو يفقه بعض جوانبه، بمنأى عن فقه الواقع.

ولعلّ الاتجاه الفردي في دائرة الاجتهاد الفقهي المعاصر، أوجد حالة من الفزع عند العامّة بسبب اتساع هوّة الخلاف، حتّى انتقلنا من خلاف الأئمّة إلى اختلاف أفراد الأمّة، ومن المدارس الفقهيّة إلى الاجتهادات الفرديّة.

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب العلم، حديث رقم (٢٦٧٠)؛ وأبو داود، السنن، كتاب السنّة، حديث رقم (٤٦٠٨)؛ وأحمد، المسند، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، حديث رقم (٣٦٤٧)

** والمتنطعون هم المتجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم. وقيل: هم المتكلّفون والمغالون.

إذن لامناص من النظرة الجماعية، أو على الأقل التقارب في النظرة والحكم داخل إطار المجموعة، فالعقل الجماعي أقرب إلى إصابة الحقّ، وأنفع للأمّة، لما له من نفاذ الرؤية في دائرة الشمول والتوازن. فإنّ يد الله مع الجماعة. قال ﷺ: «**إنّ الله لا يجمع أمّتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ في النّار**»[1] ذلك انّ الفرديّة تعتريها المزاجية، والنزعة الذاتية، وقد تتجاوز إلى الأنانيّة، فلابدّ من تجاوز حالة الشعور بقدسيّة الأفراد، تحقيقا لشمولية المصالح.

٨- حبّ الانتصار للرأي الخاص، بأن يشعر المرء في نفسه مطلق الحق، بينما لايرى جزءا منه عند غيره، وأن يعتقد أنّ رأيه صواب لايحتمل الخطأ وإن كان خطأ، ورأي غيره خطأ لا يحتمل الصواب وإن كان صواباً. والحكم على المخالف في الرأي بأنّه في ضلال أو على باطل،دون الاعتراف بإمكانية تعدد الدلالات والإجتهادات،خصوصاً وأنّ دائرة التشريع الإسلامي تتسع لذلك.

٩- الغلظة في التعامل والخشونة في الأسلوب، مع المسارعة إلى سوء الظن قبل التماس الأعذار.

١٠- ملازمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأمور التي هي محلّ خلاف عند الفقهاء.

---

(١) الترمذي، السنن، كتاب الفتن، حديث رقم (٢١٦٧) ، وفي رواة الحديث سليمان المدني، ضعّفه بعض أهل العلم.

ضوابط التعامل مع التراث

بسبب غشاوة الرؤية التراثيّة، وضعف الوازع الديني، أصبح التعامل مع معطيات التراث التربوي الإسلامي بسوده الفوضى، وضعف الشعور بالانتماء نحو الأصالة، ممّا أحدث انفلاتا فكريّاً أثّر بشكل كبير في ممارسات الأتباع.

كم من فئة ادّعت حقيقة الانتماء لهذا الدين، وأنّها الفرقة النّاجية، ودونها فرق ضالّة، استنادا لما ورد في حديث النّبي ﷺ الذي قال فيه: **وإنّ أهل الكتابَين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملّة، وإنّ هذه الأمّة ستفترق على ثلاث وسبعين ملّة [يعني الأهواء]، كلّها في النّار إلاّ واحدة وهي الجماعة»**[1]

ما الضابط إذن في تقرير حقيقة الانتماء، وما الذي يحكم وجهة الاستقاء من عناصر وقيم التراث، والتعامل معه؟.

لقد أصبح من الضروري إيجاد مايحكم ذلك، كي تتجنّب عشوائية التصوّر، وغوغائيّة السلوك، لتحقق استقامة الوجهة نحو تأصيل واقعنا، دون أن نُحدث شغباً فكريّاً . وقد يتحقق جانبا من ذلك بوضع ضوابط للتعامل مع التراث، نذكر منها:

---

(١) أحمد، المسند، كتاب مسند الشاميّين، حديث رقم (١٦٤٩٠) (واللفظ له) ؛ وأبو داود، المسند، كتاب السنّة، حديث رقم (٤٥٩٧) ؛ والدارمي، السنن، كتاب السِّيَر، حديث رقم (٢٥١٨).

أ- ضابط انتقاء الفئة التي تتعامل مع معطيات التراث، وما يجب أن تتصف به من صفات، يُمكن من خلالها تحقيق هدف التأصيل، مثل سلامة الاعتقاد، وتقوى الله عزّ وجل وخشيته، وتحرّي الأمانة العلميّة في انتقاء النّصوص والتعامل معها، وبشكل خاص نصوص الوحي، ثمّ اتساع دائرة المعرفة بأحكام الشريعة، وشموليتها، لتتمكن من النظرة الكليّة الشاملة، قبل تقرير القيم، وتحديد الوجهات، ورسم معالم الطريق. حيث أنّ النظرة الجزئيّة في التعامل تؤدّي إلى تشويه القيم والمفاهيم، وتضييق أفق التصوّر، وبالتالي إحداث خلل في تأصيل الواقع. ولابدّ كذلك من وجود الوعي الحضاري الذي يحقق لقيم التراث فاعليتها في واقع حياتنا.

ب- ضابط انتقاء عناصر التراث في إطار فقه الأولويات، تجنّباً لبعثرة الجهود، وتشتت القيم، فنُعطي كلّ ذي حقّ حقّه، فيكون الاهتمام أولاً بنصوص القرآن الكريم، ثمّ بنصوص السنّة النبويّة المطهرة، ثمّ سيرة وآثار أصحاب رسول الله رضي الله عنهم وأرضاهم، ... وهكذا.

ج- ضابط انتقاء الأساليب والوسائل، لتيسير الافادة من التراث، وذلك بتوفير أكبر قدر ممكن من الخبرات سواء كان في مجال انتقاء الأساليب، أو الوسائل. والاستفادة من مناهج السلف في الاستنباط والفهم، والاسترشاد بالعلماء المتخصصين في كلّ اتجاه من موضوعات التراث.

نظرة في وصايا العلماء

لقد حوت مصادر التراث كمًا هائلاً من وصايا العلماء، كان الهدف منها تحريك السلوك نحو الأمثل لدى طلبة العلم، وصيانة العلم الشرعي الذي أخذوه عن شيوخهم، ولعلّ الصحبة العلميّة ساعدت إلى حدّ كبير في البناء التربوي لطالب العلم، فكان لا غنى عنها بغية كمال التحصيل. فلا ينبغي النّظر إلى وصايا العلماء على أنّها حالة خاصّة، ومناجاة بين الشيخ وطالبه، بل هي ميدان من الخبرات والتجارب، وصورة شاخصة لاعتراك طاحونة الحياة، ومحصّلة لمعانات العلماء.

يقول الإمام أبو حنيفة النّعمان لأحد تلاميذه: «إنّه ليحزنني مفارقتك، وتؤنسني معرفتك، فواصلني بكتبك، وعرّفني حوائجك، وكن لي كابن، فإنّي لك كأب»[1] ويقول سعيد بن عبد العزيز: «كنّا عند مكحول كبعض ولده»[2]

فمن الصعب تصوّر قوّة الرابطة بين الطالب وشيخه خارج الواقع الذي شهدها، لما تحتويه من صور مثاليّة يندر تواجدها في واقعنا الحالي.

---

(١) وصيّة أبي حنيفة لأحد تلاميذه ص١١

(٢) تاريخ ابن عساكر ١١٤/٧ (ترجمة سعيد بن عبد العزيز)

لقد زادت صحبة الطالب لشيخه دراية الشيخ بحال تلامذته، ومكنته من توجيههم نحو أمثل الأخلاق والخصال. لذا دأب بعض الشيوخ على كتابة وصيّة لطلابهم عند فراغهم من التحصيل العلمي، والأخذ عنهم. وأبرز ما وقفت عليه في هذا، وصيّة الإمام أبي حنيفة لتلميذه يوسف بن خالد السمتي، فبعد أن أخذ عن شيخه العلم وأراد الرجوع إلى البصرة [بلدته آنذاك] استأذن السمتي شيخه أبا حنيفة في ذلك، فقال له أبو حنيفة: «حتّى أزودك بوصيّة فيما تحتاج إليه في معاشرة النّاس، ومراتب أهل العلم، وتأديب وتفقّد أمر العامّة، حتّى اذا خرجْت بعلمك كان معك آلة تصلح له، وتزينه ولا تشينه.

أعلم إنك متى أسأت عشرة الناس صاروا لك أعداء ولو كانوا لك أمهات وآباء وإنك متى أحسنت عشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهات وآباء.

كأني بك وقد دخلت البصرة وأقبلت على المخالفة فيها ورفعت نفسك عليهم وتطاولت بعلمك لديهم، وانقبضت عن معاشرتهم، ومخالطتهم وهجرتهم وهجروك وشتمتهم وشتموك وضللتهم وضللوك وبدعوك، واتصل ذلك الشين بنا وبك، واحتجت إلى الهرب والانتقال عنهم، وليس هذا برأي، إنه ليس بعاقل من لم يدار من ليس له من مداراته بُد، حتى يجعل الله له مخرجاً.

إذا دخلت البصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك، فانزل كل رجل منزلته، وأكرم أهل الشرف، وعظم أهل العلم، ووقر الشيوخ، ولاطف الأحداث، وتقرب من العامة، ودار الفجار، واصحب الأخيار، ولا تتهاون بالسلطان، ولا تحقرن أحداً، ولا تقصرن في مروءتك، ولا تخرجن سرك إلى أحد، ولا تألفن ما ينكر عليك في ظاهره، وإياك والانبساط إلى السفهاء، وعليك بالمداراة والصبر والاحتمال وحسن الخلق وسعة الصدر، واستجد ثياب كسوتك، واستفره دابتك، وأكثر استعمال الطيب، وأبذل طعامك فإنه ما ساد بخيل قط، ولتكن لك بطانة تعرفك أخيار الناس، فمتى عرفت بفساد بادرت إلى صلاحه، ومتى عرفت بصلاح ازدت فيه رغبة وعناية، واعمل في زيارة من يزورك ومن لا يزورك والإحسان إلى من يحسن إليك أو يسيء، وخذ العفو وأمر بالمعروف، وتغافل عما لا يعنيك، واترك كل ما يؤذيك، وبادر في اقامة الحقوق، ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهد برسلك، ومن غاب منهم افتقدت أحواله، ومن قعد منهم عنك فلا تقعد أنت عنه.

واظهر تودداً للناس ما استطعت، وأفش السلام ولو على قوم لئام ... ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس أو ضمك وإياهم مسجد، وجرت المسائل، وخاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تُبْدِ لهم خلافاً، وإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول: فيها

قول آخر وهو كذا وكذا والحجة له كذا، فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك، فإن قالوا هذا قول مَن؟ قل بعض الفقهاء، وإذا استمروا على ذلك وألفوه عرفوا مقدارك وعظموا محلك.

واعط كل من يختلف إليك نوعاً من العلم ينظرون فيه، وآنسهم ومازحهم أحياناً، وحادثهم فإن المودة تستديم مواظبة العلم، وأطعمهم أحياناً، واقض حوائجهم، واعرف مقدارهم، وتغافل عن زلاتهم، وارفق بهم، وسامحهم، ولا تبد لأحد منهم ضيق صدر أو ضجراً، وكن كواحد منهم.

واستعن على نفسك بالصيانة لها والمراقبة لأحوالها، ولا تكلف الناس ما لا يطيقونه، وارض لهم ما رضوا لأنفسهم، وقدم إليهم حسن النية، واستعمل الصدق، واطرح الكبر جانباً، وإياك والغدر وأن غدروا بك، وأدّ الأمانة وإن خانوك، وتمسك بالوفاء، واعتصم بالتقوى، وعاشر أهل الأديان وأحسن معاشرتهم»[1]

والمتمعن في هذا الوصيّة يدرك أنّها حوت جوانب متعددة في صيانة شخصيّة طالب العلم، وتوجيهه نحو ميادين الحياة واجتماعيات النّاس وأخلاقياتهم. فحقاً أنّها آلة تزين ولا تشين، وعدّة للعالمين العاملين. فيها منهج معاملة العامّة والخاصّة، وحفظ العلم وكرامة العلماء، وطرائق مثلى للعاملين والدعاة.

---

(١) أنظر بقيّة الوصيّة ففيها فوائد عظيمة في السلوك والاستقامة وحسن المعاشرة ومكارم الأخلاق. (الوصيّة مطبوعة في كتيّب صغير، راجعها وعلق عليها ابراهيم مختار الجبري، مطبعة الحلبي، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)

في ظلالها تستقيم وتتزن شخصيّة العالم، وتسمو مكانته. يقرب من القلوب من غير نفرة، ويُؤنس من غير ضجر، وتتقبله النفوس من غير ملل. لقد زُويت في هذه الوصيّة جوانب كثيرة من مكارم الأخلاق، وأخلاقيات العلماء، وتجارب الخبراء، وخبرة المجربين.

إذن كيف يُمكن أن تتناول الأبعاد التربويّة في هذه الوصيّة للتعامل مع قيمها، وتأثير ذلك في حياة طالب العلم الذي افتقر إلى مثلها في زماننا؟. وكيف يُمكن أن تعيش تلك القيم في واقع مؤسساتنا التربويّة، وميدان حياتنا الاجتماعيّة، في زمان تزاحمت فيه الآراء، وكثرت الطروحات، وتنوعت الاتجاهات، وزاد إعجاب كلّ ذي رأي برأيه.

كلّ ذلك ينبغي أن يوضع في حساباتنا ضمن شموليّة التأصيل، وواقعيّة قيم الأصالة، تحقيقاً للمنهج الفاعل للتعامل مع معطيات تراثنا التربوي الإسلامي، في ميادينه المتنوعة.

وآخيراً أسأل الباري عزّ وجلّ أن يتقبّل منّا خالص الأعمال، وأن يوفقنا لخدمة دينه، إنّه سميع مجيب. وصلى الله وسلّم على رسوله الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

** **ابن الأثير** (المبارك بن محمد الجزري المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، ط١ ، بيروت، دار الفكر.

** **ابن الأثير** (علي بن محمّد بن عبد الكريم الشيباني المتوفى سنة ٦٣٠هـ) ، أسد الغابة في معرفة الصحابة.

** **أحمد بن حنبل** (ت: ٢٤١ هـ)، مسند الإمام أحمد، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩١م.

** **أبو الاعلى المودودي** ، دور الطلبة في بناء مستقبل العالم الاسلامي، الاتحاد الاسلامي للمنظمات الطلابيّة ، دار القرآن الكريم، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

** **أكرم ضياء العمري** ، التراث والمعاصرة ، سلسلة كتب مجلة الأمّة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، ط١ . ٥ - ١٤٠٥هـ.

** **أكرم ضياء العمري**، التعليم في عصر السيرة والراشدين (بحث في المؤسسات والممارسات) المجلّد الأول (المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلاميّة،الأردن،عمّان).

** **الآمدي** (علي بن محمّد) الإحكام في أصول الأحكام،ط١.

** **البخاري** (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ) صحيح البخاري، تحقيق:مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، ١٩٨٧م

** **ابراهيم مصطفى ورفقاؤه**، المعجم الوسيط،احياء التراث،بيروت.

** **ابن بشكوال** ، الصلة ، طبعة مصر ١٩٥٥م.

** البطليوسي (ابن السيّد البطليوسي الأندلسي) ، الانصاف في التنبيه على الاسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم،تحقيق: محمد رضوان الدايه، دار الفكر، ط١/١٩٧٤م.

** البغوي ، شرح السنّة ، تحقيق الأرنؤوط.

** الترمذي، سنن الترمذي، دار احياء التراث ،ودار الفكر ١٩٨٣م

** ابن تغري بردي (يوسف بن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، المتوفى سنة ٨٧٤ هـ) دار الكتب المصريّة .

** ابن تيميّة (أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الدمشقي الحنبلي). الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ . ١٩٧٦م.

** ابن تيمية، الفتاوى (المجلّد العاشر، علم السلوك).

** ابن تيميّة، فقه الكتاب والسنة ورفع الحرج عن الأمة.

** الحاكم النيسابوري (محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٧٤٨هـ) المستدرك على الصحيحين، بيروت، دار الكتاب العربي، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي(بدون تاريخ)، ودار المعرفة، بيروت.

** ابن حيان (محمّد بن حيان البستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ)، مشاهير علماء الأمصار، عني بتصحيحه م.فلايشهمر، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩م.

** ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني) فتح الباري بشرح صحيح البخاري /-ط١- بيروت، دار الفكر، ١٩٩٣م.

** أبو حنيفة، وصيّة أبي حنيفة لأحد تلاميذة (الوصيّة مطبوعة في كتيّب صغير ، راجعها وعلّق عليها ابراهيم مختار أحمد الجبري، مطبعة الحلبي ١٩٣٦م)

** **الخطيب البغدادي** (أحمد بن علي بن ثابت البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ) المكتبة السلفيّة في المدينة المنورة.
** **ابن خلكان** (أحمد بن محمد، المتوفى سنة ٦٨١هـ) **وفيات الأعيان**، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.
** **دائرة المعارف الإسلاميّة**، طبعة مصر، ١٩٥٧م.
** **أبو داود** (ت ٢٧٥هـ) سنن أبي داود، المكتبة العصريّة، بيروت.
** **الدارمي**، سنن الدارمي، دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م
** الديب، **عبد العظيم**، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، مقدمة: عمر عبيد حسنة.
** **الذهبي** (الحافظ أبو عبد الله محمّد بن أحمد الذهبي، المتوفى ٧٤٨ هـ) سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة ط١.
** الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار احياء التراث، بيروت.
** **ابن رجب**(أبو الفَرَج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، المتوفى سنة ٧٩٥ هـ) جامع العلوم والحكم، بيروت، دار الجيل ١٩٨٧م، وطبعة مؤسسة الرسالة، ط١ ١٩٩١م.
** **الزركلي**(خير الدين) الأعلام،دار العلم/بيروت/ ط٦/١٩٨٤م.
** **السبكي** (عبد الوهاب بن علي السبكي) طبقات الشافعيّة الكبرى، تحقيق: محمّد محمود الطناحي وعبد الفتاح محمّد الحلو، ط١، ١٩٦٧م، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه.
** **سفر الحوالي**،العلمانيّة، رسالة ماجستير في جامعة أمّ القرى.
** **سلامة موسى**، الأدب للشعب، مصر ١٩٦١م.
** **سلامه موسى**، اليوم والغد، نُشر سنة ١٩٢٧م.

** **سيّد قطب** ، في ظلال القرآن ، دار الشروق، القاهرة.

** **الشاطبي** (أبو اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمّد الشاطبي، المتوفى سنة ٧٩٠ هـ) ، الموافقات في أصول الشريعة، ط١ ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩١م.

** **الصابوني**(محمّد بن علي الصابوني)مختصر تفسير ابن كثير.

** **طه حسين**: مستقبل الثقافة في مصر، مطبعة المعارف، القاهر.

** **الطبري** (محمد بن جريرالطبري، المتوفى سنة ٣١٠ هـ) ، تاريخ الأمم والملوك، دار سويدان، بيروت.

** **الطبري**، محمّد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، بيروت. دار الفكر، ١٩٨٨.

** **ابن عبد البر** (يوسف بن عبد البر ، المتوفى سنة ٤٦٣هـ) ، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب، بيروت -دون تاريخ.

** **العز بن عبد السلام** (عز الدين بن عبد السلام) ، قواعد الأحكام في مصالح الأنام / -ط١- بيروت، دار الكتب .

** القرطبي (محمّد بم أحمد الإنصاري القرطبي، المتوفى سنة ٦٧١ هـ) دار الكتب المصريّة ، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م.

** **ابن القيّم الجوزيّة** (شمس الدين محمّد بن أبي بكر، المتوفى سنة ٧٥١هـ) اعلام الموقعين عن ربّ العالمين، القاهرة، ٦٨م١م.

** **ابن كثير** (أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) البداية والنهاية ، دار الريّان للتراث، ط١ ، ١٩٨٨م.

** **ابن كثير**،تفسير القرآن العظيم،دار المعرفة، بيروت،١٩٦٩م.

** **ابن ماجه**، سنن ابن ماجة، دار احياء التراثالعربي.

** مالك بن أنس ، الموطأ، احياء العلوم، بيروت، ١٩٨٨م.

** مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، بروت، إحياء التراث.

** محمّد محمّد حسين، الاتجاهات الوطنيّة في الأدب العربي المعاصر، بيروت، ١٩٧٠م.

** المراكشي، (عبد الواحد المتوفى ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط٧/١٩٧٨م.

** مسلم بن الحجاج ، صحيح ، دار احياء التراث، ١٩٧٢م.

** المقري، نفح الطيب ، طبعة مصر.

** ابن منظور (محمد بن مكرم)، سان العرب ، بيروت،دار صادر.

** النّسائي، سنن النّسائي، دار البشائر ١٩٨٦م.

** أبو نُعيم (أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) حلية الأولياء، دار الكتاب العربي ، بيروت.

** الهيثمي (نور الدين الهيثمي) مجمع الزوائد ، بيروت ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢ هـ.

** يوسف القرضاوي ، الخصائص العامة للإسلام ص٢٤٣. مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣ .

** يوسف القرضاوي، الحلّ الإسلامي فريضة وضرورة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٤م.

واذا ما ازددت علماً زادني علماً بجهلي

دار الامـــل

Al-Amal Bookshop

ص.ب ٤٦٩ – تلفون ٢٧٦١٧٤

شارع شفيق ارشيدات

اربد – الاردن